موت الأحلام الصغيرة

موت الأحلام الصغيرة
رواية
محمد عبد السلام
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٧
ISBN 978 -977-6535-90-9
رقم الإيداع : ٢٦٧٤٥ / ٢٠١٧
ديوى : ٨١٣
٢٢٤ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

موت الأحلام الصغيرة

رواية

محمد عبد السلام

حسناء للنشر

"لا تخشَ شيئًا إن كانت آراؤك غريبة؛
فكل الآراء المقبولة اليوم كانت تعتبر غريبة في السابق"
برتراند راسل

١

على شاطئ الإسكندرية صباحًا وعلى نسيم البحر المنعش يمكنك ببساطة أن تنسى هجوم الشمس مع أعوانها من الناموس.

السيارات تمر مسرعة كل ذاهب إلى عمله، بعض الأشخاص من الرياضيين وغير الرياضيين يجرون ويهرولون، والكثير من العاشقين متشابكي الأيدي ملتصقي الأجساد يتناجون بما لا يسمعه غيرهم، تلاحقهم نظرات "السناجل" الحاقدة ولا يعكر صفوهم إلا هجمات الناموس الذي لا يكل ولا يمل.

صورة رغم جمالها لا تخلو من العشوائية

ومن عناصر هذه الصورة العبثية مراهق طويل أبيض الوجه شعره أسود طويل وناعم يرتدي "شورت" أسود وتيشيرت بدون أكمام أبيض اللون يجري بسرعة وهو يلهث، يقترب من الشاطئ ثم يتوقف ويحني ظهره يحاول التقاط أنفاسه ويبعد التيشيرت الذي التصق بجسده من العرق، وإذ هو يحاول التقاط أنفاسه يأتيه أكثر ما يختطف الأنفاس.

أكثر من الجري....

المؤخرات.

تمر بجواره إحداهن، يقف الفتى وينظر لتلك الفتاة، حجاب أسود اللون وقميص أحمر ذو خطوط بيضاء متقاطعة، وبلوزة سوداء واضح أن خلفها ما يجبرك على احترامها.

هناك شيء يدفعه ليكلمها... شيء بعيد عن المؤخرات، شيء لا يفهمه

يتبعها وهي تسير في ثقة وسرعة. أسرع في مشيه كي يسبقها ويرى وجهها.

أسرع ورأى، رأى وجهًا يشبه أبطال السنيما الهوليودية، عينان واسعتان تنظران نظرة قاسية، وجه أبيض ومشرق، رموش طويلة.

يبدو أن كلمة جميلة اخترعت كوصف لها.

بالطبع من الغريب أن يسبق شاب فتاة وبكل أريحية يدير وجهه كي ينظر في عينيها، نظرت له بتعجب سرعان ما تحول لغضب.

أدار المراهق وجهه وأسرع بالمشي إلى الأمام واحمر وجهه خجلا وسأل نفسه:

يا ترى لماذا فعلت هذا؟

فكر في أن يكمل تتبعها أكثر.... قال في نفسه: ألم يكفك هذا الإحراج؟

وما لبث أن أسكت تفكيره.... وقف عند كشك ليشتري زجاجة مياه... تخطته هذه الفتاة فمشي خلفها تسوقه إرادته كالغنم... لا يمتلك مبررًا لتتبعها يقنع به حتى نفسه.

إنها فتاة جميلة ليس أكثر، فلماذا كل هذا الجنون؟ هل أحببتها من أول نظرة؟ حقا منذ متى الحب من الخلف.... لن يجدي التفكير نفعًا اصمت الآن.

تتبعها حتى نفق المحروسة، دخلت النفق ولحسن الحظ كان هناك مجموعة من الأصدقاء سيلجون للداخل، فتوارى خلفهم ينظر من بين أكتافهم إليها يحاول جاهدًا منع الأسئلة التي تتسابق إلى عقله .. لكن لا مفر، لأول مرة لا يستطيع الإجابة ولأول مرة يقف حائرًا أمام سؤال ما.

وفي الطرف الآخر كان الاثنان قد أنهيا النفق.... توقفت الفتاة وكذلك مراقبها.. وجعلت الفتاة تشير إلى الميكروباصات الذاهبة إلى فكتوريا.

والآن ماذا؟ إن ركبت معها انكشفت وطارت منك وإن تركتها وشأنها – ولماذا تتبعها من البداية – طارت أيضًا منك... ظل منغمسًا في حيرته حتى توقف لها ميكروباص وركبت فيه، ثار الأدرينالين في دمه.... ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ طرأت على رأسه فكرة مجنونة..

أوقف تاكسي... قال سائق التاكسي: على فين يا حبيبي؟

اضطرب الفتى، هو حتى لا يعرف وجهة هذا الميكروباص، وقال متلعثمًا: ورا المشروع ده.

قال السائق بفراغ صبر: ليه بقى إن شاء الله؟

رد بصدق ساذج: في واحدة عايزها.

كان هذا الرد كفيلا بأن يقطف آخر شعرات العقل من رأس السائق:

- واحدة مين إلى عايزها يلا يا بن ال ...

- هاديك مائة جنيه.

وضع مائة جنيه أمام السائق وهو ينظر إلى المشروع الذي يشارف على الاختفاء وكانت هذه المائة جنيه كفيلة بأن ترجع شعرات عقله كلها:

- مش على الفلوس ... اللي انت عايزه.

واختطف المال من يد شهاب الذي لو كان يستطع لقبل السائق واحتضنه:

- أنهي واحد؟

- ده إلى عليه صورة محمد منير.

انطلق السائق بسيارته وفي الطريق سأل شهاب نفسه: لماذا كل هذا؟ هل يوجد سبب منطقي واحد يجعلني أفعل كل هذا؟ وما نهاية كل هذا الجنون؟ وهل الحب إلا ضرب من ضروب الجنون؟ يتابع بعينيه الميكروباص حتى يتأكد أنها ما زالت فيه، وعند فكتوريا يتوقف الميكروباص وينزل الجميع وهي معهم، أوقف السائق السيارة في ركن من الأركان وخرج شهاب من السيارة وأسرع الخطى حتى أصبح على بعد ٢٠ مترًا منها.

يمشي وراءها تسوقه كالغنم... في موقف المشاريع سألت أحد سائقي السوزوكي: فين اللي رايح الفلكي؟.. التونايا البيضة إلى هناك أعروسة

هذا الصوت الملائكي الطرب سمفونيات موزارت كلها لا يمكن أن تطرب هكذا، تقدمت للتونايا هي الوحيدة فيها، هل يمكن أن أكون بهذا القدر من النحس؟ تهافته إحدى أفكاره المجنونة والمكلفة وفي الحقيقة خلال النصف ساعة الماضية.

أصبح كل شيء مجنون عقلانيًا، توجه إلى محل ملابس أمام الموقف، ألقى سلامًا وتبعه قائلا: عاوز أي حاجة سوداء بزونط .

التفتت العاملتان في المحل إلى بعضهما باستغراب، قالت إحداهما بتوجس: حاضر. وعبثت في بعض الملابس وأخرجت كما طلب تيشرت أسود بزونط، التقفه من يدها:

- بكام ده؟

- ب ١٥٠

أخرج المال من جيبه وكانت الفتاة الأخرى في المحل، دخلت في غرفة تغيير الملابس تضحك من تلك الطريقة الغريبة في الشراء.

ألقى التيشريت على جسده والزونط على رأسه وهم خارجًا من المحل يتمني أن لا تراه تلك الفتاة، ويسب ويلعن فيها وفي جمالها، لقد امتلأ السوزوكي إلا المقعد بجانب السائق، جلس

فيه فانطلقت العربة وعلى أصداء المهرجانات سرح الفتى في أفكاره.

إلى ماذا سينتهي كل هذا؟ لماذا أصلا أفعل كل هذا؟ عليك اللعنة أنت وجمالك، أيقظه من تساؤلاته صوت الفتاة تقول:

- الشارع اللي جاي معاك.

ما أجمل القدر إن تباهى! هذا نفس الحي الذي يسكن فيه شهاب، السيوف شماعة، أكملت هي مسيرتها غير عابئة به.

أراد أن يوقفها ويقول لها: أي ده انت ساكنة هنا؟ حتة صدفة.. تصدقي أنا كمان ساكن هنا؟ أنا اسمي شهاب وانت اسمك إيه؟ لكنه لا يأمن عاقبة فعلته.. تبعها حتى ركن يعرفه جيدًا، مطعم فول وفلافل الصالحين الذي يشتري منه الإفطار أحيانا.

والغريب أنها دخلت العمارة التي أمامه، عمارة رثة ما زالت طوبًا أحمر، باب صغير حديدي وشبابيك حقيرة وبلكونات لا تأمن الوقوف فيها، هل هذا الملاك يحتويه هذا القبر؟ غريبة هذه الدنيا لا تعطي كل ذي شأن شأنه، وشأن هذا الملاك

أن يوضع مكتنفا بالزجاج في متحف اللوفر.

وماذا الآن؟ هل سينتهي كل شيء؟ توجه شهاب إلى عربة أمام العمارة وجلس عليها، تنهد طويلا، لقد أذابه الحر وجسده كله عرق. ما الخطوة التالية؟ لا يمكن أكتفي بهذا، أنا أريد... في الحقيقة أنا لا أدري ماذا أريد، ولكن لا يمكنني الاكتفاء بهذا... هذا ما

سيحدث، سأذهب للبيت الآن وغدًا يوم كامل، مشى شهاب إلى بيته الذي كان قريبًا من بيتها، ولكن لا يشبهه البتة، عمارة من عدة عمائر بنفس التصميم الهندسي البسيط محاطة ببعض الأشجار.

يطرق الباب ويفتح له والده المهندس محمد عبد الله مهندس بترول في شركة، لحيته طويلة وغير مرتبة وزبيبة صلاة كعلامة أديداس تتوسط جبهته، يجلس إلى حاسبوه المحمول في الصالون، يلقي عليه شهاب السلام فيرد بالمثل.

يدخل غرفته، غرفة على الطراز الشبابي، سرير أزرق فوقه صور لكتاب عالميين أمثال ديوستفيسكي وغابريل جارسيا ماركيز ونجيب محفوظ، وعلى اليسار مكتبة شبابية تتخطى الثلاثمئة كتاب، وتلفاز ٣٢ بوصة فوق مكتب أسود اللون بجانبه مذكراته وحاسوبه، يأخذ الحاسوب ويرتمي على السرير ينظر إلى السقف ويستمع إلى السمفونية ٤٠ لموزارت موسيقاره المفضل، ويفكر في هذه الفتاة التي شغلت باله بدون حتى أن يعرف اسمها، وحتى هذه اللحظة لا يوجد تفسير منطقي إلا أنه أحبها ووقع في شرك حبها من المحاولة الأولى.

شعر بالسعادة لأنه شعر بالحب، فمنذ فترة طويلة لم يكن يشعر إلا بالكره والحقد والغضب... والآن تأكد أنه مازال يمكنه أن يحب مثل باقي البشر.

❊ ❊ ❊

في الصباح كان والده قد غادر إلى العمل، ارتدى شهاب ملابسه بعشوائية وانطلق لمنزلها، جلس على عربة في زقاق مقفل أمام العمارة.

من أول عشر دقائق شعر بالملل لكنه كان مستعدًا... أخرج هاتفه المحمول وأوصله بالسماعات وعام في عالم من أكثر العوالم التي يعشقها عالم الموسيقي، الساعة الواحدة ظهرًا وهي لم تظهر، أخرج رواية شفرة دافنشي للكاتب الأمريكي دان بروان.

وفي الثانية ظهرًا تكرمت علينا الملكة بظهورها... كاد من السعادة والتحمس أن يكسر السماعات ويمزق الرواية.

مشى وراءها كالمعتاد حتى وصل إلى معهد صغير يسمى معهد الرسالة... معهد افتتح حديثا منذ ثلاث سنوات لا يأتيه طلاب كثر بل لا يكترث أحد بوجوده لوجود الكثير من المعاهد المعروفة بجانبه، ومن يرى المعهد يرى مدخلاً واسعًا لا يوجد به أي شيء بجانب مدخل العمارة التي هو فيها، وسلالم توصل لغرف التدريس... تتبعها وهو يبتلع ريقه... ماذا سيحدث إن رأتني وتذكرتني؟ سأخسرها بالتأكيد حتى وإن كانت تريد أن تدرس في هذا المعهد، لو تذكرتني ستغير رأيها بالتأكيد.

وفي غرفة السكرتير يجلس شاب طويل لديه تفاحة آدم وشعره قصير وفتاة تضع رِجلاً على رجل وترتدي حجابًا تفلت منه بعض الشعرات السوداء.

سألت الفتاة – تالتة ثانوي هتبتدي إمتى؟
يالله!! شكرًا لك على هذه الصدف.
- - يوم السبت اللي جاي.
- الشهر بكام؟
- الشهر ب٦٠
- شكرًا يا أستاذ.

استدارت ونظرت لشهاب تتفرسه وتحاول تذكره، ولكن لم تتعب نفسها أكثر من ثلاث ثوانٍ همت بعدها بالخروج، سأله السكرتير:
- أيوه؟
- أنا برضو كنت هسأل عن تالتة ثانوي.
- تالتة ثانوي يوم السبت اللي جاي زي ما قلت للآنسة.
- تمام شكرًا.

خرج شهاب من المعهد والفرحة تملأ كل خلية في جسده، لأول مرة يحس بمدى روعة الرياح والشمس، بالسعادة التي تصدر عن أصوات كل شيء.

في خلال هذا الأسبوع يكذب شهاب إن قال إنّ هذه الفتاة لا تشغل تفكيره بالكامل، واليوم أخيرًا سيراها مرة أخرى.
لأول مرة منذ زمن يقف أمام المرآة وينتقي ملابسه بعناية.

من قال إن الأموات لا يمكن إعادتهم للحياة؟ إذًا كيف أعادت تلك الفتاة الحياة لقلب شهاب؟

وفي غرفة الاستقبال عشرون طالبًا مقسمون أولادًا وبنات منتظرين بداية الدرس، بحث شهاب بعينيه عنها في المنتظرين ولكنها لم تكن من ضمنهم، جلس في أحد الكراسي على بعد كرسيين من آخر كرسي مملوء، ووضع حقيبته بجانبه، لم يحاول أحد من الطلاب التقرب منه ولا حتى سؤاله عن اسمه، وهذا ليس بالشيء المزعج، لقد اعتاد على الوحدة وعاشرها.

عند كل وقع أقدام يتأهب شهاب ويعدل ملابسه لعلها تكون هي، وفي كل مرة كان يفاجأ بخيبة أمل، هذا وقع أقدام آخر أتكون هي؟ على أي حال سأرتب ملابسي.

قدم يمنى سمينة تدخل إلى الغرفة، رجل ضخم يبدو أنه في أفضل صحة، شعر قصير بشكل غير ملحوظ، ابتسامة هادئة وواثقة.

- السلام عليكم أستاذ تامر

- وعليكم السلام.

أشار السكرتير إلى الطلبة أن ادخلوا إلى القاعة، قاعة صغيرة تتوسطها طاولة محاطة بعدد كافٍ من الكراسي وسبورة تخفي خلفها نافذة هي الوحيدة في الغرفة، مروحتان تطلقان أصواتًا

مستفزة، تتابع الطلبة والطالبات وجلس شهاب أيضًا، من نظرة واحدة استطاع شهاب أن يحدد مبدئيًا شخصيات الطلاب.
هذا من نوع "عبده موتة" وذاك "دحّيح" وذلك "رِوش" هذه من نوع "اشقطني بالله عليك" وتلك حافظة لفرجها وعفتها.
رغم انعدام تعامله مع الناس لكنه يستمتع بمراقبتهم ومحاولة فهمهم... بعد فترة قصيرة ولج الأستاذ إلى الغرفة وعرّف نفسه... مرت دقائق من الحصة كسنين، الفتاة ليست هنا... بعد ربع الحصة دق الباب، أهي هي؟ نعم هي، بنفس جمالها ونظرتها القاسية، ألقت نظرة مقتضبة على الأولاد وتوجهت إلى ركن الإناث.
الأستاذ – اسمك إيه؟

- اسمي روان أحمد.

أمسك شهاب بقلمه وقلبه بين يديه وقال بصوت لا يسمعه أحد غيره:

- انت بقى اسمك روان، أنا اسمي شهاب وشكلي كده بحبك.

مرت الحصة وشهاب يستغل أي فرصة ليراقب فيها تقاسيم وجه روان وهي إن نظرت إليه تكون تلك النظرة القاسية... تعجب شهاب، ماذا يمكن أن يكون داخل هذا القلب؟ تلك النظرة أعرفها جيدًا، دائما كنت أنظرها، نظرة المكسورين من الماضي، ولكن ماذا رأت من ماضيها؟ مهما كان فليس أسوأ من ماضيّ.

وفي المنزل كان شهاب يضع "لاب توب" والرواية التي بدأ في قرأتها قريبًا وبعض الملابس... قال له والده:

- رايح لأمك؟

- اه.

- هترجع إمتى؟

- أربع أيام كده.

- تبقى تبعت أخوك من عندها.

- حاضر.

وكانت والدته تقطن في باكوس، مكان عشوائي قريب من الترام.. عمارة صغيرة الحجم متواضعة ولكنها أفضل من منزل روان، صعد شهاب للدور الثاني حيث شقته، في الداخل شقة متواضة كالعمارة، بعض قطع الأثاث متناثرة بشكل كئيب وأرض متسخة وملابس داخلية معلقة على قطع الأثاث البالية... يرى والدته تجلس على كرسي كان يومًا ما مرتفعًا عن الأرض، أما الآن فهو ملتصق بها.

امرأة في أواخر الثلاثينيات، إن رأيتها قلت امرأة عجوز عفا عليها الزمن، أشيب شعر رأسها، نظرت له نظرة قاسية ما أشبهها بنظرة روان.. جلس شهاب في مقابلة والدته وهي تقطع الخضار.

- أبوك مش ناوي يدينا فلوس؟

- لا يجيب شهاب

- إداك انت فلوس؟

يهز رأسه نافيًا.

وفي داخل غرفته يجد أخاه نور مفترشًا على سريره يذاكر دروسه... شاب في الثامنة عشرة من عمره وفي كلية الطب، ضخم الجثة مفتول العضلات ولديه زبيبة صلاة أصغر من والده.

- جيت من الكلية؟

نور ببرود قد اعتاده شهاب:

- آه

غرفة صغيرة عكس تلك التي في السيوف، ويتشابك سريراهما معًا فيعطيان شكل حرف T وفوق سرير شهاب كل شهادات التفوق التي حصل عليها منذ الحضانة إلى الصف الثاني الثانوي موقعة إما من مدرسته الأزهرية التي ظل فيها حتى الإعدادية وخرج منها، أو مدرسته الإعدادية العامة التي أكمل فيها الإعدادية "تهنئ مدرسة ... الطالب / شهاب محمد عبد الله لتفوقه وحصوله على المركز الأول في المدرسة" ... وخلف سرير أخيه خلفية مشابهة لكنها أزيد عددًا وموحدة المدرسة الأزهرية.

وهناك كومود مهترئ وصندوق كرتوني توضع فيه الملابس، وفي السقف لمبة موفرة واحدة متدلية بفتيل واضحة أسلاكه...

ويفكر في روان أحمد صاحبة الجلالة والنظرة القاسية .. يا ترى ماذا حدث لها كي تكون هكذا؟ ما الماضي الذي تجرعته كي تنظر تلك النظرة؟ ... بالتأكيد ليس أسوأ من ماضيّ.. فهي تستطيع التعامل مع الناس وأظن أن عائلتها ليست مفككة كعائلتي، وأظن أيضا أنها لم تفكر ولا مرة في الانتحار... الانتحار.. أتمنى أن تكون منقذتي منه.

تذكر شهاب قول والده فقال:

- نور.. بابا عايزك تروح له بكرة الصبح.

أكمل نور مذاكرته كأنه لم يسمعه، لكن شهاب يعلم جيدًا أنه في غاية السعادة، فهناك يمكنه أن ينام في غرفته الخاصة مع تلفازه وحاسوبه ويأكل طعام الملوك... ارتخى شهاب على جنبه الأيمن وسأل نفسه بصوت هامس: ليه أبويا وأمي مطلقين؟

❊ ❊ ❊

٢

في صباح اليوم التالي ذهب أخوه إلى تدريبه، فهو مدرب فنون قتالية مختلطة في نادٍ رياضي صغير، ووالدته إلى عملها في مدرسة ابتدائية قريبة من منزلهم تعمل كعاملة نظافة. جلس شهاب على سريره وحيدًا كما كان وكما سيكون لأبد الآبدين... اجتاحه هذا الاكتئاب المفاجئ فانسلت من عينيه دمعة على خديه، سأل نفسه:

- علام تبكي؟ أتبكي على وحدتك أم على والديك اللذين لم ترهما معًا أبدًا؟ أم على تلك الشيطانة التي عشقتها؟ الذي جاءك يزيدك حيرة على حيرة، لقد أصبحت تائها، لقد مللت.

وفي الساعة الثانية اتجه للدرس أو بالأحري لروان التي يعشقها من طرف واحد، إن أسوأ مشاعر الكون هي مشاعر حب غير متبادلة، هنا يفصلك عن شفير الجنون ما بين قدمك والأرض.. وبالأخص إذا كانت معشوقتك هي إلهة جمال الأرض، وفي هذه المرة كان درس اللغة الإنجليزية للمدرس "محمد عابد" أستاذ ضئيل الحجم لين العريكة...

صفوف الأولاد والبنات تتكون من خمس أو ست أفراد، أما صف شهاب فيتكون منه ومن صديقيه العزيزين الكره والكآبة اللذين يزاملانه في كل مرحلة من مراحل حياته، وأمامه كانت روان لا يرى منها وجهها ولكن وجودها بجانبه يطمئنه ويسعده ويجعله يتوقف عن سب ولعن البشر، فلقد تأكد أن فيهم من يشفع لهم... لقد كان يكره البشرية كلها حتى هذا اليوم، أصبح يكره البشرية كلها إلا واحدًا.

ما أغربك أيها القدر، تضعني في الحب وأنا في مثل هذه البلاد.

بعد انتهاء الدرس وخروج الطلاب امتزج صفا الأولاد والفتيات معًا، تختلط الأيادي وتتناثر الضحكات .. وشهاب وروان واقفان وحدهما .. وكأن كل هذا حدث فقط كي يستفزه.

وتمر الأيام وشهاب أسير الحب من طرف واحد.. ليس هناك ما يمكنه فعله إلا الشكوى لدفتر مذكراته، هذا الصديق الوفي الذي لم يفارقه أبدًا، يتقبل خربشاته بالقلم ويتقبل ألفاظه الخارجة ويحتوي مشاكله النفسية... هذا الدفتر الذي كان وما زال أكبر شاهد على رحلة شقاء شهاب من طفولته إلى لحظته هذه.

لقد سئمت من كل هذا، أريد إخبارها بما في قلبي، وإن والله ما في قلبي لصدق ولكن ما هي عاقبة أمري؟ هل ستكون ساخطة أم سعيدة؟ هل سأرى ابتسامتها للمرة الأولى منذ لقائها؟ ربما.. لا أدري... سأنام الآن وفي الصباح أكمل تفكيري.

ما زال شهاب في شقة والدته الكئيبة.. بمجرد أن فتح عينيه تذكر روان.. وماذا يمكن أن يتذكر غيرها؟ تذكر تفكيره ليلة أمس في محاولة اعترافه لها بحبه، انتابت جسده رجفة.. توجه إلى الحمام وهو يمر على غرفة والدته.. سمع صوتًا يشبه البكاء والنحيب، توقف بجانب الغرفة واختلس نظرة لداخلها... لقد كان بكاءها، لقد كانت والدته تبكي وهي ممسكة بعشرين جنيهًا يبدو أنها آخر ما في المنزل من مال.

أطلق فاه متعجبًا.. لا يخفى على أحد الحالة الاقتصادية الصعبة لوالدته، ولكن أحقا تحتاج المال بهذا الشكل؟ دخل إلى الغرفة، نظرت له والدته وطوت العشرين جنيهًا ونظرت إلى الأرض كي لا يرى دموعها.. قال لها:

- ماما.. أنا رايح لبابا يومين وراجع.

- هزت رأسها.

- أبعت نور؟

هزت رأسها مرة أخرى، غادر شهاب الغرفة وجهّز حقيبته كالمعتاد.. ثم توجه إلى شقة والده.. شقة إبليس الحقيقي.. في الداخل كان أخوه يذاكر، رفع رأسه لكي يرى من القادم واستغرب عندما رأى أخاه.. قال شهاب ليتدارك دهشته:

- هاقعد يوم وهامشي.

أعاد نظره إلى الورق كاللامبالي.. دخل شهاب إلى غرفته وفتح درج المكتب، أخرج مذكراته وكان من تحتها المصروف الذي يعطيه له والده ١٥٠٠ لم ينقص منها شيء، أخرج منها ٥٠٠ جنيه ودسها في جيبه وارتمى على سريره... لماذا والدي لم يعطِ أمي من ماله؟ أعلم أنها لم تكسب قضية النفقة بعد ولن تكسبها كما أعتقد... هي تكافح منذ أن كانت حاملاً فيّ .. بل أقصد لماذا لا ينفق عليها بشكل ودّي بدون اللجوء إلى المحاكم وما شاكلها؟ أليس الإسلام دين تسامح ورحمة؟ أوليس والدي متدينًا؟ بالتأكيد فلحيته كبيرة ولديه زبيبة صلاة... حقا وكأن زبيبة الصلاة هي الختم الذي يختمه الله على رجال الدين، غلبته عيناه كما كانت تغلبه دائمًا.

❊ ❊ ❊

عندما استيقظ كان والده قد عاد من العمل وجلس في الصالة كما رآه آخر مرة يشاهد قناة الناس، سأله والده:

- ايه إلى جابك انت مش لسه ماشي؟

نظر إليه وإلى زبيبة الصلاة:

- كنت عايز أقعد على النت وهناك مفيش نت.

اقترب شهاب من والده وقال: بابا كنت عايز فلوس.

- كام

- ١٠٠ جنيه.

أخرج الوالد من جيب جلبابه عدة أوراق من فئة ١٠٠ جنيه وأعطى إحداها لشهاب،

ابتسم شهاب ابتسامة مصطنعة:

- شكرًا يا بابا.

ورجع إلى غرفته مرة أخرى.. أخرج كتاب اللغة الانجليزية وكشكولاً للكتابة فيه وبدأ في الاستذكار، ولكنه لم يستطع... كلما بدأ في الكتابة يرسم قلوبًا.. وإن كتب فيكون اسم روان أحمد.. ابتسم ابتسامة استسلام عندما تأكد أنه لن يذاكر بل لن يسترجع حياته الطبيعية حتى ينهي كل شيء.. حتى يعترف لها بحبه.. ولكن كيف؟ إنني حتى لا أستطيع التواصل مع الذكور، كيف لي أن أتواصل مع أنثى وأعترف لها بحبي؟ وزد أننا في مجتمع شرقي.. وكيف ستحبني وأنا لا أملك إلا موهبة الكتابة؟... موهبة الكتابة.. يمكنني أن أكتب لها رسالةً وألحقها بشيكولاتة غالية الثمن.. تبًا لعبقريتي.. هل لدي الجرأة لأفعل ذلك؟ لن أعرف إلا إذا حاولت.

❊ ❊ ❊

في اليوم التالي كالعادة شهاب هو الوحيد في المنزل، أخرج مذكراته وبدأ يقص لها ما يحدث له... الأسئلة تتوالى وتفرغ على الورق وإن أثّر الحكي ففي سقف غرفته، وإن أدمع تكفكف وسادته دموعه....

من دونها تسمعه؟ وكتب أيضا ذلك الجواب الذي حاول اختصاره قدر الإمكان، ومع كل كلمة تتساقط من عينيه دمعة لا يعرف سببها.. إنه هذا الحزن المباغت الذي يأتي من ذكرياته اللعينة.. كلما حاول أن ينساه يتذكرها أكثر.

ملأ حقيبته وانتقل إلى بيت والدته.. ما زال هذا المشهد محفورًا في ذهنه.. وكيف له أن ينساه.. وفي الطريق رأى مجموعات من الأصدقاء يستمتعون بوقتهم حقا، يضحكون من قلبهم فرحين ويرى المتحابين بأيديهم الفاسقة ونظراتهم الملتهبة ويرى الأطفال مع والديهم يشترون الحقائب الدراسية ويشترون احتياجات المدرسة.

تبا لكم.. ألا تعرفون أن هناك من لم يأخذ من الحياة سوى العقاب؟ هذه الذكريات السوداء تطارده.. ولحسن الحظ ينقذه من ذكرياته سائق العربة، يتسابق مع الزمن، يمر بجانب السيارات بشكل عكسي بل وأحيانا يصعد على الرصيف..

وتتوالى لعانته على كل من تقع عليه عيناه.. حتى مرة وبدون أدني سبب ألقى بكل قاموس شتائمه على إحدى السائقات المسكينات، يقول شهاب من الخلف بصوت خافت كي لا يسمعه السائق:

- انت حرام تشتغل سواق أصلا.

وفي منزل والدته نظراتها القاسية لم تعد قاسية، فلقد علم أن وراءها ضعفًا.. لقد علم أنها تشبهه جدًا... اعتاد شهاب أن لا يعبأ بمشاعر أحد حتى وإن كانت أمه، لا يدري لماذا انفطر قلبه البارحة،

جلس شهاب في قبالتها ونظر في عينيها عميقا يحاول الوصول إلى مركز الضعف الذي فيها ... أخرج ٢٠٠ جنيه من جيبه وقال

- اتفضلي يا ماما دي من بابا.

أمسكتها بنظرة فارغة وتأملت في الورقة لثوانٍ قبل أن تقول بصوت يعبر عن ما فيها من ألم:

- هو لسه فاكر سيادته؟

ودستها في جيبها... أحس شهاب بنوع من راحة الضمير، لقد فعلت ما عليّ لا أحد يمكنه لومي... وفي غرفته المشتركة شكا للسقف ما يشكوه للدفتر.. كل شيء؛ والده وحدته مرورًا بروان حتى تفكيره بالانتحار.... الانتحار.. منذ فترة شغلت تلك الفكرة باله، يسأل نفسه:

- ما هي اللذة في الحياة؟

وحقا هذا السؤال هو أكثر الأسئلة جلبًا للانتحار؛ لأن إجابته تكون محبطة، ولكن هذه الروان غيرت تفكيره.. أصبح هناك شيء يشده للحياة، إما هي وإما لا شيء... رغم هشاشته ولكنه شيء.. بعد جلسة الحوار مع السقف قرر شهاب أن يخبر روان بحبه لها أول يوم في الدراسة.

وكل يوم يقترب من أول يوم للدارسة يزيد قلق شهاب وتزيد الأسئلة، هناك العديد من السيناريوهات التي وضعها في مخيلته لما يمكن أن يحدث.. بالطبع ليست كلها سعيدة ولا

كلها حزينة ولكن كلها محتملة... حتى جاء اليوم الموعود، وكأن قلق كل الأيام الماضية واضطرابها منذ رؤية هذا الشيطان الملائكي وحتى هذا اليوم تجمع في يوم واحد... وهذا بالإضافة إلى توتر يوم في أيام الدراسة.

استيقظ شهاب في بيت والده على صوت المنبه الذي هيأه البارحة على الساعة السابعة والنصف صباحًا... أخذ ثلاث دقائق إلى أن تذكر أن اليوم هو أول يوم في الدراسة وعليه أن يخبر روان بحبه.. أعاد رأسه مرة أخرى إلى الوسادة وقال:

- يا إلهي لماذا كلمة أحبك بهذه الصعوبة؟

خرج من منزله واستقل سيارة والده الذي سيقله إلى المدرسة.

ليس في عقل شهاب إلا كيف سيخبرها.. ليس في أذنه صوت إلا صوتها.. ليس في عينيه صورة... كأن أحدًا حفر اسمها على جفون عينيه.. وفي المدرسة حشد من الطلاب المتجمهرين أمام المدرسة منتظرين افتتاحها للدخول... هؤلاء من يلبسون الأصفر هم طلاب الصف الأول قصيرون نسبيًا.. وهؤلاء من يلبسون الأحمر هم من ينتمون إلى الصف الثاني.. أما من يلبسون الكاجوال وهم قلة فهم طلاب الصف الثالث ومنهم كان شهاب... يقف وحيدًا ممسكًا حقيبته بقوة حتى لا ينتشلها أحد الطلبة المشاغبين، ويتحسس جيبه كل دقيقتين كي يتأكد من عدم خلوه .. يباغته اصطدام شيء

ما في أسفل قدمه اليسرى، يتبعه بلل في موضع الاصطدام.. وضحكات متقاطعة، يلتفت شهاب ليرى ستة من طلاب الصف الثاني وفي أيديهم سجائر يضحكون وينظرون له وبجانبه كيس عناب يسيل منه المشروب وشهاب مبلل به.

يبتعد شهاب عنهم وينأى بعيدًا عن هذا التجمع لأكثر شيء يكرهه وهو البشر... يفكر شهاب في أي شيء سعيد في حياته كي يكبح دموعه حتى لا يسخر منه الطلاب.. فوجئ أنه لا يرى من ذكرياته إلا لونًا أسود غامقًا لا يوجد أي شيء يسعفه.. لم يجد إلا روان، ففوجئ أنها لم تزده إلا قلقًا وتوترًا... فلجأ إلى قرص نفسه كي لا يبكي.

شاهد من بعيد دخول الطلاب.. كم يتمنى أن يموت كل شخص فيهم.. ويسأل نفسه لماذا وجدوا في هذا الكون؟ في الحقيقة شهاب لا يكرههم بل هو يكره المجتمع الذي صنعهم.. لقد انتهى سيل الطلاب فقرر شهاب الدخول إلى هذا المبنى الحقير الذي يسمى المدرسة... وفي الطابور كانت تحية العلم الذي لا يراه أحد بل يرى عمودًا أسود طويلاً... هل هذا علم مصر؟ وكلمة المدير المستفزة.. والإذاعة التي كان صوتها غير مسموعٍ من سوء المايكروفون.

ودفع الطلاب له يمينا ويسارًا ورميه ببعض الأشياء الصلبة والسائلة.. وهو لا حول له ولا قوة... مرت الحصص السبع التي لا

تربطها ببعض أي صلة رتيبة ومملة... لا يحلو من وقتها إلا التفكير في هذه الفتاة القاسية (رورو)
في نهاية اليوم الدارسي تدافع الطلاب تدافع البهائم مع السب والقذف بألفاظ قذرة تشربوها من مجتمع أقذر.

ولكن لماذا؟ هل الناس القذرة خلقت مجتمعًا قذرًا؟ أم المجتمع القذر خلق أناسًا قذرين.. إن هذا أشبه بهل البيضة أولا أم الفرخة... في كلتا الحالتين يجب أن تسأل من أين أتى الاثنان.
كان يومًا طويلا ومتعبًا ومستفزًا خصوصًا عندما ترى هذا الانحطاط الثقافي من المدرسين قبل الطلاب، ستستفز مهما كنت.. بقيت ساعتان وسينتهي كل شيء، إما تتقبلني روان وتتقبل حبي بسعة صدر وإما أن ترفضه هو وحبه ويرفض مع ذلك الحياة... من الغريب أن تعلق حياتك على تصرفات شخص ما.. في هذه الظروف لا... ارتدى شهاب ملابس جديدة.. عطر استرقه من والده.. جواب فيه الورقة وشيكولاتة فاخرة يعبران عن جزء ضئيل من حبه لروان... الطريق إلى المعهد ازداد قسوة وحبًا في نفس الوقت.. شيء معقد كما هي نظرة روان.

❊ ❊ ❊

٣

كان أول الحاضرين للمعهد.. المطر يزداد غزارة معلنا عن بدأ فصل الخريف.. يحتمي شهاب بشرفة إحدى العمائر القريبة من المعهد.. لا يريد الصعود إليه كي يستطيع إمساك الشيطانة التي عشقها.. أمسك الجواب وقال في نفسه: إما اليوم وإما فلا.

اقتربت مسرعة الخطى ناظرة أمامها تارة وتحتها تارة، نظرتها القاسية التي تزيدها جمالاً على جمالها لا تفارق وجهها.. يملأ وجهها المطر، كما هي ملابسها وحجابها الذي يخرج منه بعض الشعر الذهبي الملتصق بجبتها.. تشع نورًا أضاءت له الشمس والقمر.. تقدم شهاب تجاهها يناشد قلبه أن اهدأ ولكن لا حياة لمن تنادي.. اقترب حتى كان يفصله عنها حوالي مترين، وعندما تأكدت روان أنه متجه إليها توقفت.

ونظرت له نظرتها المعتادة، تذكر أول مرة رآها عند شاطئ البحر، من يومها لم يمارس رياضته المفضلة.. تذكر منذ هذا اليوم مرورًا بكل شيء حتى هذه اللحظة.. سأل نفسه للمرة الألف: لماذا كل هذا الجنون؟ قال لها متلعثما:

- اااا كتاب الكيمياء.

لم تستطع روان إخفاء ابتسامتها التي سرعان ما أجهضتها وأرجعت النظرة القاسية، فتح شهاب فاه والسعادة وصلت عنده منتهاها.. يمكنها الابتسام.. قالت بصوت طرب تحاول جعله حادًا:

- ماله؟

قال بتلعثم أعظم من الأول:

- اااا عايز االصوره

نظرت له ثانيتين بصمت اختفت فيهما النظرة القاسية وظهر ما في قلبها من حب، ظهر ما في قلبها من أنوثة.. في تلك الثانيتين فقط صرخت أنوثتها المتفجرة.. رغم قصر المدة استطاع شهاب تمييز كل هذا... أخرجت من حقيبتها كشكولاً أسود اللون وأعطته لشهاب:

- اتفضل.

رغم أنها كلمة عادية ولكن وقعها على أذن شهاب كان مميزًا للغاية.. التقف شهاب منها الكشكول واتجه إلى محل الصفا والمروة للتصوير بجانبهم.. في الداخل رجل سمين وقصير شعره أبيض ومجعد، قال شهاب: عايز أصور أول عشر صفحات.

مد الرجل يده بصمت وأخذ منه الكشكول ليصوره.. في هذا الوقت أخرج شهاب الورقة من الجواب وأعاد قراءتها للمرة الألف تقريبًا وقال لنفسه:

هذا ما أشعر به نحوك يا روان، لا بل أكثر من هذا.

قاطعه صوت الرجل المتحشرج: اتفضل يا بني.

اقترب منه شهاب وسأله: كام؟

- اتنين جنيه.

أخرج شهاب من جيبه جنيهين وأعطاهما للرجل وفتح الكشكول مع جنون دقات قلبه وانصباب العرق ملأ جسده.. وألم بطنه من التوتر.. وضع فيه الجواب.. وسلم الكشكول لروان في يدها وقال بثقة لا يعلم مصدرها:

- في حاجة جوة عايزك تقريها.

- حاجة؟ حاجة ايه؟

قال بابتسامة طفولية بريئة:

- حاجة هتعجبك.

أخرجت الظرف ووجدت فيه الشيكولاتة، نظرت له بدهشة، ازداد اطمئنان شهاب، أخرجت الورقة وقرأت، ومع توغلها في القراءة يزداد وجهها احمرارًا وتزداد غضبًا وحنقًا.. نظرت له بغضب وهزت الورقة بيديها:

- ديه ايه بقى إن شاء الله؟

شهاب وقد بدا عليه التوتر:

- أنا بحبك يا روان.

- بتحبني؟ أنا هوريك يا حيوان.

وتوجهت إلى باب المعهد.. حاول شهاب تدارك الوضع فقال لها:

- استني بس هو الحب عيب؟

فقالت له بصوت مرتفع:

- آه عيب وحرام.

واستمرت متوجهة إلى باب المعهد.. قد عرف شهاب ما سيحصل لذا منع عقله من التفكير.. وقف على أول سلمة وهي كانت قد وصلت إلى أعلى، لماذا؟ لماذا؟ صعد شهاب السلم ببطء بنظرة خلت من التعابير وقلبه خالٍ من كل شيء، أصبح خاويًا وهشًا.. سمع بعض الكلمات والجمل من قبيل: ده ماترباش.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. الإسلام يضيع من بين أيدينا.. وعندما أصبحت غرفة الاستقبال في نطاق نظر شهاب رأى الشيخ أحمد أبو السيد صاحب المعهد يقف في منتصف الغرفة لحيته طويلة وغير مرتبة ويقصر جلبابه حفاظًا على السنة، يخرج من جيبه مسواكًا و iphone 7 وبعض الطلاب من سنوات مختلفة يضحكون بشكل هستيري وسكرتير المعهد محمد ممدوح يقف أمام الباب وهناك روان واقفة بجانب الشيخ، أجمعوا جميعهم أن شهاب مجرم.. عندما رأوا شهاب قادمًا ببطء ووجهه خالٍ من التعابير.. صرخ السكرتير والرذاذ يتطاير من فمه:

- تعال يلا.

تقدم شهاب فعلا لا يدري فيم يفكر، ربما بعد هذه الصدمة لم يعد يفكر في أي شيء.. قابله السكرتير بصفعة على خده طرحت

جسده الهزيل أرضًا، تبدلت نظرة روان لبضع ثوان لنظرة حنان..
قال الشيخ للسكرتير:

- سيبه يا محمد حرام عليك.

ووجه كلامه لشهاب بكل حنان وبؤس:

- ترضاها لأختك؟

لم يرد شهاب فهو يستعيد وعيه بعد تلك الضربة المغالية، أكمل الشيخ كما أنه لم يكن ينتظر ردًا:

- لأمك لعمتك لخالتك؟

كان يتمني شهاب أن يقول له:

- أنا لن أرضاها لهم بل سأتمناها لهم.
- ولكنه لم يستطع من أثر الضربة، قال الشيخ:
- صدق رسول الله صلي الله عليه وسلم، سوف يأتي زمان يكثر فيه الهرج والمرج .. يوم القيامة يقترب.

قال شهاب بصوت واهن:

- انت راجل مأفور.

نظر له الشيخ وقد جن جنونه:

- كيف تجرؤ؟

ووجه كلامه لمدوح:

- اتصل بأهله عشان يربوه.

وارجع كلامه لشهاب:

- إحنا لو في بلد بيطبق شرع الله زي السعودية كان زمانه مطبق عليك الحد.

صرخ السكرتير في شهاب: اطلع برة وماشوفش وشك هنا تاني.

أدار شهاب ظهره وخرج من المعهد دون أن يبدو عليه أي انفعال والمطر في الخارج يزداد ضراوة وشدة، لا يدري إلى أين يذهب اليوم، أإلى والده الشيخ المتدين الذي من وجهة نظره ابنه ارتكب جريمة الزنى؟ أم لوادته تلك التي لم تعد تطيق الحياة بمن عليها؟ أيهما أرحم؟ قطع تفكيره رنين هاتفه وصوت والدته تقول بعتاب ووعيد:

- ليه كده يا ابن الكلب خليت شكلنا وحش قدام الناس؟ هيقولوا إيه؟ هيقولوا معرفناش نربيك؟ والبنت عملتلك إيه عشان تعمل فيها كل ده؟ تعالى وأنا أقسم بالله هوريك.

وأنهت المكالمة.. يا لها من مواساة رائعة أيتها الأم، رن هاتفه مرة أخرى فكان والده.. قرر شهاب عدم الرد، ليس هناك جديد سيقوله، تتابعت الرنات مرة تلها الأخرى وهو لا يرى في الرد شيئًا مثيرًا... وقف في منتصف الشارع الذي كان خاليًا من البشر، نظر إلى السماء التي كانت تمطر بغزارة وأغلق عينيه وحدث نفسه:

- هل الحب خطأ؟ إن كان فلماذا وضعه الله في قلوبنا؟ وإن لم يكن خطأ فلماذا أعاقب؟ يا ربي لماذا لا تساعدني؟ والسؤال الأهم هو لماذا فجأة أحببت الموت

هكذا؟ في النهاية اختار الذهاب إلى والده لأن دفتر المذكرات صديقه الوفي هناك.

في بيت والده لم يكن يجلس كما اعتاد في الصالون.. قال شهاب:

- السلام عليكم

ولكن لم يأته رد.. فبحث عنه في غرفته وغرفة نور ووجده في غرفة نومه.. قال الأب بدون أي مقدمات:

- أترضاها لأختك لأمك لعمتك لخالتك؟ هاه؟ أنت ربنا هينتقم منك في نار جهنم، انت شيطان معرفناش نربيك.

وأخرج من خلفه حزامًا "كلاسيك".. وأسرع إلى شهاب وضربه بالحزام مرتين على بطنه وسط تألم شهاب وصراخه، أمسك شهاب بطنه.. وابتعد عن والده مهرولا وارتمى في الصالون وصوت القرآن يصل إلى أذنيه من غرفة نوم والده.. انهمرت دموعه بشدة.. ما أسوأ وقع الحاضر وذكريات الماضي وسواد المستقبل، تهاجمه ذكرياته من كل حدب وصوب وهو لا يمتلك شيئًا إلا البكاء.. بعد عشر دقائق خرج والده من الغرفة وتوجه إلى الحمام.. استغل شهاب تلك الفرصة فأمسك بطنه وتحامل على ألمه، بضعة أمتار فقط ما يفصله عن الغرفة، ولكنها كانت أطول من المعتاد، حاول كتم صوت نحيبه ولكن لم يستطع.. أخيرًا وصل إلى غرفته واتجه إلى مكتبه وأخرج دفتر مذكراته بني اللون من فوق المكتب وأخرج

من الدرج الثاني ألف جنيه ووضع السماعات حول رقبته.. انفتح باب الحمام.. تسارعت دقات قلبه بشكل هيّأ له أنه سيخرج من مكانه.. اتجه إلى بنطال والده وأخرج ٢٠٠٠ جنيه من محفظته.. إنها ليست سرقة بل تخليص حساب.. ألم بطنه يزداد كلما تحرك، خرج من باب الغرفة إلى باب البيت وخرج منه ونزل السلالم بصعوبة كأن أحدًا يقطع أمعاءه.. في الشارع كانت الأرض مبللة بالماء وبرك الماء في كل مكان، الوضع هنا أشبه ببندقية قذرة.. جلس شهاب على الرصيف وأمسك ببطنه وبكى بصوت لا يسمعه أحد غيره لخلو المكان.. لم يتبق له مكان آخر كي يذهب إليه.. بيت والدته.. هل تعرف من يذهب إلى الجحيم بقدميه؟ لا تظلمه فربما هو ذاهب هناك هربًا من جحيم ألعن.. سار شهاب حتى رأى تاكسي فأوقفه. " باكوس يسطا؟ "

فأشار له السائق بالركوب.. جلس شهاب في الخلف تتلاطمه بحور الذكريات والأفكار.. لماذا كل أوقاتي سيئة بهذا الشكل؟ لماذا أتحمل أوزار أخطاء لم أرتكبها؟ ولماذا فعلت روان ما فعلته؟

وصل شهاب إلى بيت والدته.. كانت هي وأخوه ينظران له نظرة عتاب، قام أخوه بغضب وسب ولعن متوجها إلى أخيه.. جرى شهاب إلى غرفته وازداد ألم بطنه

ولكن أخاه باغته بضربة على مؤخرة رأسه، حاول شهاب تحاملها حتى يصل إلى غرفته، وهناك أقفل الباب بالترباس، ومن ثم طرق

أخوه الباب بعنف وهو يقول صارخًا: أنا هاربيك.. أنا هاربيك.. جلس شهاب على سريره ونظر للسقف صديقه الثاني.. لم يتبادلا الكلمات حتى هدأ أخوه وابتعد عن الباب، قال شهاب للسقف:

- ما هي الجريمة الشنعاء التي ارتكبتها كي أعاني من كل هذا؟ لقد سئمت ١٧ عامًا لم أر فيها يومًا سعيدًا.. لا أريد شيئا من دنياكم.. تقول لي لن أتلذذ بعد اليوم أقول لك وما هي اللذة؟ أهي لذة الأكل أو الشرب؟ أم تراك تقصد لذة الجنس؟ لقد جربتها جميعًا، ممتعة حقا ورائعة جدًا، ولكن اللذة التي أقصدها أعمق من هذه، اللذة التي أقصدها هي الحب.. تلك اللذات كم تدوم؟ عشر ثوان؟ خمس عشرة ثانية؟ إنني لم أجد الحب من أهلي أو من الفتاة التي أحببتها ولا من مجتمعي ولا حتى من نفسي، فما هو الشيء الذي يربطني بهذه الحياة؟

أمسك شهاب دفتره بعد أن أنهى محادثته مع السقف وشكا له كل ما حدث اليوم، كم هم رائعون هؤلاء الأصدقاء.. لا يمكن لأحد منهم أن يجرحك. كتب شهاب في الدفتر حتى شعر بالنعاس وأسلم نفسه للنوم، وفي العالم الآخر عالم الأحلام كانت الكوابيس هي من تحكم.. ولم تكن كوابيس شهاب إلا جزءًا من ماضيه.. شخص بماضٍ مثل شهاب لا يجب على عقله أن يخترع كوابيس.

❊ ❊ ❊

٤

في المعهد لا زالت حفلة السب واللعن في شهاب مستمرة.. والشيخ يقول لروان إن ما فعلته هو الصحيح، أخبر السكرتير عائلة روان التي أخبرتها أن تأتي إلى المنزل... جلست عشر دقائق في المعهد ونزل أحد المدرسين قبلها كي يتأكد أن شهاب لا ينتظرها تحت، وبعد أن تأكدوا أنه ليس موجودًا سمحوا لها بالنزول، وسط دقات المطر على رأسها ومشاعرها المتضاربة التي لا تعرف إذا كانت آسفة أم مستاءة.. هجم على رأسها صداع رهيب.. اشترت "ريفو" من صيدلية على الطريق وابتلعته بدون ماء، تكافح دموعها مع علمها أن انفجارها مسألة وقت ليس أكثر.. ولم يزدها هذا إلا حيرة، أتبكي لأن شخصًا اعترف لها بحبه؟ لم يكن على وجهها ملامح الجدية والنظرة القاسية لم تعد موجودة.. تلاشت مثلما يتلاشي الدخان.

وعندما دخلت من باب عمارتها الصغير، كان مدخلاً صغيرًا جدًا ومهترئًا تمامًا، ينبعث نور من لمبة تضاء يوميًا من الساعة السادسة مساء مع زوال الشمس إلى الساعة الثانية عشرة ليلا مع دخول آخر فرد للمنزل، تصعد روان السلالم التي تبين أنها ستسقط في أي لحظة بمن عليها...

في الدور الأول المكون من شقة واحدة بابها مفتوح على مصراعيه، عند سماع صوت أقدامها بكوتشيها الأسود البالي من كثرة الاستعمال، قامت والدتها مرتدية النقاب تحسبًا إذا كان أحد غيرها.

من خلفها بضعة وجوه تميزهم بسهولة، خلعت والدتها النقاب عندما رأتها، جميلة مثل بنتها رموش طويلة وعيون بقرية سوداء وشعر أشقر. أبعدت ذراعيها عن بعضهما واقتربت من روان وهي تقول:

- حبيبتي يا بنتي.

حاولت روان أن ترسم ملامح حزينة أو أن تعيد النظرة القاسية ولم تقدر:

- عملك إيه يا بنتي؟ يا عيني شكلك مصدومة تعالي جوه.

وشدتها من يديها بقوة كادت معها أن تسقط على الأرض.. وفي الداخل كانت أختها شرين ذات الثمانية عشر ربيعًا وهي نسخة من أختها مثل أمهما، إلا أن لديها تلك البطن المنتفخة دليلاً على الحمل في الشهر السابع.. قالت لها بشيء من المعاتبة:

- ما هو انتي اللي ماشية تتمرقعي في الشارع.

ووجهت كلامها إلى أمها وهي تشير إلى روان بإصبع الإبهام:

- البت دي سنتين وتجوّزيها بلا تعليم بلا قرف، هي دي وش تعليم؟

- أنا عارفة يا ختي؟ أيوه سنتين ونجوزها.

تقف روان وهي تستمع إلى مستقبلها الذي يحددونه... وعلى الكرسي كان الشخص الوحيد غير المبالي... أخوها الصغير محمد ذو العشرة أعوام أسمر الوجه كالصعايدة، شعره أسود وخشن، رفيع جدًا بحيث إن أي شيء يرتديه يكون واسعًا عليه... من يراه مع روان لا يتوقع أبدًا أنهما أخوان من قلة الشبه... في الحقيقة لم يكن أخوها المدعو محمد غير مبالٍ بل كان غير فاهم... شخص ما في مكان ما قال لأختي إنه يحبها ولم يعتدِ عليها جنسيًا.. ما هو الجزء الذي لم أفهمه الذي يجعل البيت يقوم ولا يقعد؟ ولكنه تعلم في العشر سنوات تلك أن يجعل أفكاره الشاطحة لنفسه تجنبًا لمشاكل هو في غنىً عنها... قالت أم روان لروان التي أخيرًا وفي ضمن هذا الجو التراجيدي استطاعت أن ترجع نظرتها مرة أخرى باحترافية.

- اقلعي الحجاب يا بت.

فخلعته فعلا ليصافح شعرها الذهبي الهواء كأنه مطلي بالذهب.. وجلست على إحدى كراسي ما يسمونه صالون وهو أصغر من حمام في أحد المطاعم... يتكون من أريكة مرسوم عليها رسومات شرقية وكرسيين من البلاستيك وآخرين يشبهان ما في المقاهي الشعبية، أحدهما شغلته روان والآخر شغله أخوها محمد،

وطاولة في أقصى يسار الغرفة يوضع عليها تلفاز "بانسونيك" من التسعينيات.

جلس الثلاثة.. روان وشيرين وأمهما أمام بعضهن يتبادلن النظرات القاسية.. إن ترهن تقل نفس الشخص ولكن في مراحل عمرية مختلفة.. أو يلعبن لعبة التحديق ومحمد هو الحكم بينهن.. أما عن محمد فلقد أهلكه التفكير الذي حدث بسببه كل هذه المشاكل، إما هو غبي جدا أو هم الأغبياء جدًا.

وعلى حين غرة اقتحم الشقة رجلان أحدهما طويل القامة ما يقارب المترين أصلع الرأس من المقدمة، وأما بقية شعره فهو أسود اللون، وهو أسمر البشرة حليق الذقن وشاربه كثيف يرتدي ملابس ملطخة بالطلاء والأتربة.. والآخر شاب صغير حوالي خمس وعشرين سنة يرتدي ملابس مشابهة لتلك التي يرتديها الرجل الكبير، شعره مصفف بعناية مع فرق في المنتصف ووجهه يأخذ شكل ال beby face تقف الثلاث فتيات عند وصول الرجلين وتقول أم روان مخاطبة الرجل الكبير:

- شفت بنتك يا أبو روان؟

يتجاهل أبو روان كلامها ويوجه كلامه إلى ابنته روان بلكنة تثير الرعب في النفس:

- لمسك يابت؟

فترد بتفاخر:

- هو حد يقدر يا با؟
- تقول أم روان للرجل الآخر؟
- شفت أخت مراتك يا كريم؟
- عمومًا خلاص يا حاجة عيل وسخ ومش متربي وغار في ستين داهية.

وأضاف بصوت يعلو تدريجيًا:

- ولو جرب يكلمها تاني مش هيشوف نهار.

ابتسمت أم روان بنوع من النشوة... لم يزد محمد إلا نظراته المتلاحقة لكل شخص وسؤال يرواده كل ثانية.. ما هو السبب اللعين لكل ما يحدث من كره وغضب؟ منذ متى ينبثق الكره من الحب؟ أكمل الأب كلامه بلهجته الاستخبارية تحقيقه مع ابنته:

- كان عايز منك إيه الولا ده؟

نظر محمد إلى بطن أخته المنتفخة وسأل نفسه: ما هو مصير هذا الفرد الجديد من العائلة المجنونة هذه؟

جلس الأب بجانب زوجته أمام روان وجلس كريم بجانب شيرين... لم ترد روان من توترها من السؤال.. فأعاد الأب سؤاله بصوت عالٍ: كان عايز إيه؟

نظرت روان للأرض وتنهدت تنهيدة طويلة وقالت بضحكة سخرية:

- كان بيقوللي بحبك.

فصرخ الأب قائلا: قوليلوا عند أمك الكلام ده.

فقالت روان توضح موقفها:

- ما أنا قولت ماتعبش نفسي مع حيوان زي ده وكلمت الإدراة هي اللي تتعامل مع الأشكال ديه.

قال الأب فخورًا بابنته: جدعة يا بت.

وأضافت الأم بلهجة عدائية:

- يا بنتي الولد ده لو شوفتيه في حتة تانية ملكيش دعوة بيه.. مفيش حاجة اسمها حب، ده بيضحك عليكي الحب بيجي بعد الجواز.. إحنا عادتنا بتحرم الاختلاط، خليكي محترمة زي ماكنتي دايما.. احنا ناس بنخاف ربنا.

تأملت روان هذه الكلمات وأحست بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقها.. وغيرت هذه الكلمات نفوس الآخرين.. فأحست الأم بمسؤوليتها في تربية بناتها ففكرت في إلباس روان النقاب.. وأما عن مسألة تزويجها التي أثارتها شيرين فهذه مسألة وقت ليس أكثر.. وتفكر الأخت الكبرى في مسؤوليتها في تربية ابنتها القادمة نفس التربية السليمة التي تربتها.. أما الزوج فأحس بمسؤولية إخفاء زوجته عن أي رجل آخر وتربية ابنته على التعفف ضد أي حب كاذب قادم في هذا العالم المنافق.

وعلى النقيض كان محمد ينظر إليهم نظرة ازدراء ويقول بينه وبين نفسه: ما هؤلاء التافهون؟

❊ ❊ ❊

يتحسس شهاب عن يمينه وعن يساره، لا يوجد أي أثاث فيستنتج أنه ليس في البيت، يقوم شهاب فيستمع لطقطقة ظهره:

- آه يا ضهري.

جسد شهاب بالكامل يؤلمه.. يمشي بتعرج في مكان ما حالك الظلام حتى يرى ضوءًا أمامه يستعيد شهاب به الأمل... أسرع الخطى كي يقترب من مصدر الضوء فإذا هو يجري بتعرج.. وعندما وصل إلى مصدر الضوء وجد بابًا أبيض اللون مكتوب عليه excit ومحاط بأضواء حمراء، تزداد الدهشة والتوجس في نفس شهاب.. فيفتح الباب، يفاجأ شهاب بنور أبيض ساطع وقوي يجعله يضع كوعه على عينيه لا إراديًا، ومن ثم يزيله عندما يعتاد الضوء.. يري المكان فارغًا وكبيرًا ولكنه مضيء بأنوار لا يدري مصدرها... يمشي شهاب في هذا المكان وهو يترقب بخوف.. المكان فارغ تمامًا.. حتى يرى شهاب بابًا يعرفه جيدًا، يفتح الباب بسعادة وابتسامة سرعان ما تزول عندما يرى ما رأى... لقد رأى فتى صغيرًا شعره أسود ومسترتسل يرتدي ملابس عليها "ميكي ماوس" وتغلب على وجهه ملامح الحزن والقلق، لقد رأى نفسه وهو صغير وعمره سبع سنوات، وأيضًا أخوه كان أصغر، كان في عمر العاشرة، يشاهدان المشاحنة بين والديهما... فتقول والدتهما التي كان وجهها مغطى بالكدمات وفمها يقطر دمًا:

- انت فاكر إنك بالحركات دي بتبقي راجل؟ انت بتعمل راجل جوه البيت بس، إنما بره البيت فانت خروف بلية.

يقول والده الذي كان يرتدي الجلباب كعادته ولحيته كما هي لم تصغر أو تكبر:

- يا بنت الكلب.

وينهال عليها بيديه ضربًا.. يفاجأ الطفلان ويبدآن في البكاء حتى يعقد شهاب الطفل العزم ويتجه إلى والده قائلا:

- كفاية بقي يا بابا.

فيضيف أخوه مشجعًا له:

- آه خلاص بقي يا بابا.

ينظر لها الأب نظرة كراهية وغضب، يفهم الطفلان مغزى النظرة فيجري الطفل الكبير هاربًا، أما شهاب فيقف ثابتا أمام والده كأنه يقول له هات ما عندك أيها اللعين، ويهوي الأب بيمناه على وجه شهاب الصغير بقوة تجعل توازنه يختل ويرتطم رأسه بزجاج النيش فينكسر.

وفجأة يختفي كل شيء كما ظهر فجأة، ويتحول كل شيء إلى اللون الأبيض الفارغ وشهاب قد غلبته عيناه.. لقد تذكر هذا الموقف في الحقيقة هو لم ينسه.. كانت تلك إحدى المحاولات لإرجاع الحياة بين والده ووالدته والمحاولة الوحيدة التي حضرها شهاب وهو واعٍ...

مشى شهاب في هذا المكان ناصع البياض حتى أحس بالإعياء الشديد وألم في معدته فلم يجد مفرًا من أن يستلقي على الأرضية، وما إن نام على الأرض حتى اختفت فجأة.

هوى شهاب مسافة طويلة حتى ارتطم جسده بالأرض وشعر كأن كل عظامه تكسرت.. كان في فصل للأطفال في مدرسة ما، على اليمين صف للبنات وفي المنتصف صف للأولاد وكذلك على اليسار.. كان شهاب الصغير يجلس في أول تختة على اليسار.. وبجانبه أحد المساكين الذين يضحون من أجل هذا الفتى.. طفل الابتسامة لا تفارق وجهه يرتدي ملابس المدرسة المكوية بعناية... يقول شهاب بحماسة مشتعلة:

- تعرف النهاردة هاعمل إيه؟

يحاول الطفل افتعال الحماسة:

- إيه؟

قال شهاب سعيدًا وهو يصفق بيديه:

- مفاجأة.

وطار من الديسك يحمل في يديه علبة سندويشات غطاؤها أخضر وهي شفافة اللون ويتجه إلى صف البنات الأيمن وفي أول تختة كانت تجلس مريم عبده وصديقته يتهامسان ويتكلمان حتى اقترب شهاب وعلى وجهه ابتسامة خرقاء:

- عرفت إنك بتحبي سندويشات الحلاوة وماما كانت عاملاهالي النهاردة فقولت أديهالك.

قالت مريم وهي تكرمش وجهها علامة على النفور:

- لأ لأ مش عايزة.

قال شهاب وهو يكاد يبكي:

- ليه هو انت عيانة ولا إيه؟

تقول مريم وهي تشعر بنوع من الذنب:

- لأ بس.

فتخطف العلبة من شهاب قائلة:

- خلاص هاخدهم عشان خاطرك.

اهتز قلب شهاب فرحًا وأراد شكرها لولا أنه هو من جاملها، ابتعد شهاب عنها متوجها إلى تخته وبحركة بهلوانية من جسده الصغير انضم إلى صديقه المشفق على حاله.. ينظر له شهاب بابتسامة صادقة وسعيدة فيرد عليه بابتسامة مجاملة:

- هو ده اللي كنت عايز تعمله؟

يهز شهاب رأسه بقوة:

- لا لا لا بس لما تدخل الميس.

يزداد الفضول في نفس صديقه.. وبعد عدة محاولات من صديقه لاستخلاص أي شيء من ما سيفعله باءت جميعا لنفس المصير المحبط دخلت المدرسة "مايسة" مع لثغتها اللطيفة في حرف السين

وعودها الرشيق الممتلئ بعض الشيء مما يعطيها الشكل الشرقي وحجاب تضعه بشكل متهاوٍ على رأسها بدون إحكام وبنطال يكاد الدم الذي يجري في فخديها يستغيث طلبا للرحمة من ضيقه، وقميص أبيض يبرز صدرًا يجعل كل مدرسي المدرسة عرسانًا لها... باختصار هي حالة نادرة بين مدرّسات الأزهر اللائي عادة يكنّ منقبات من أعلى رأسهن إلى أخمص أقدامهن... يقف الطلاب عند دخولها فتقول بلثغتها:

- الثلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيرد الطلاب بطريقتهم المعهودة في مط الحروف:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- اتفضلوا اقعودوا.
- شكرا يا ميس.

كان أشد من في الفصل فرحة هو شهاب وصديقه، وكذلك لا يخلو أحدهما من التوتر، يقول شهاب متصنعًا الثقة:

- هتشوف هاعمل إيه.

تحمس صديقه للغاية وقد نفد صبره كشخص أتى "فان فيست يوتيوب" فقط لرؤية ثنيان خالد... يتجه إلى الميس ورأسه ملامس لمؤخرتها وببراءة الأطفال لا يلاحظ أي شيء غريب:

- ميس ميس.
- نعم.

- عايز أقول حاجة.
- اتفضل.
- لا مش ليكي للفصل.

تقول الميس بإعجاب للتغير الذي حصل في شخصية شهاب:

- قول يا حبيبي.

ينظر شهاب للفصل الذي كان لاهيًا، من يتكلم مع صديقه، وهذا يشخبط على ورقة، وهذه تحفر في أنفها، ولم يرَ إلا مستمعًا واحدًا وهو زميله في التختة الذي كاد الفضول يقتله، وينظر إلى المدرّسة طالبا النجدة، فتفهم المدرسة مغزى نظرته فتقول للطلبة برقة:

- يالا انت وهو اثكتوا، يا ثامي لم نفثك، يا بت يا ثوثو شيلي إيدك من مناخيرك يا معفنة، يا ثلاح اثكت لاقول لأمك.

وبعد أن سكت الفصل وقف شهاب في المنتصف وقال:

- جماعة أنا عايز أقول حاجة.

نظر الطلبة لبعضهم ولسان حالهم يقول: من هذا؟ أهو تائه ام يريد المساعدة؟ وهناك من يقسم أنه لم يره في المدرسة من قبل.. لم يكن يعرفه سوى مريم لكثرة تتبعه لها وصديقه المشفق وصديقة مريم المخلصة ليلى التي أخذت وقتًا قليلا كي تتذكره كاملا، قال شهاب بعد أن ابتلع ريقه:

- أنا باحب مريم عبده.

وفجأة اختفى كل شيء كما في الذكرى، ولكن هذه الذكرى كانت أثقل وقعًا عليه.. نظر شهاب للسماء التي لم تكن تختلف كثيرًا عن الأرض وقال:

- ليه يا رب ليه ؟

مشى في هذا المكان الفارغ وقد جفت دموعه حتى أحس بألم شديد يسري في كل جسده وصداع رهيب في رأسه... أمسك رأسه بيديه وصرخ بشدة وارتمى على الأرض وأغمض عينيه، وعندما فتحهما رأى أحد أعز أصدقائه.. سقف غرفته، لقد كان نائما في غرفته في باكوس ووجهه مليء بالعرق ويلهث بشدة ككلب لم يشرب منذ أسبوع.. اعتدل شهاب في جلسته ومسح عرقه بيديه... يُعرض عليه شريط الليلة الماضية سريعًا، يرفع الوسادة ويضغط بها على وجهه ويقول في نفسه:

- لقد عزمت أمري، لا داعي للمزيد.

المنزل فارغ وهادئ.. قام من سريره واتجه إلى الشرفة يسمع وقع أقدامه على البلاط العاري من أي سجاد، ينظر من الشرفة المطلة على زقاق صغير لا يعرف اسمه، بعض الأطفال يلعبون الكرة ويتقاذفون العبارات المهينة... نظر للزقاق نظرة يودعه فيها.. وأخرج من تحت سريره حقيبة سوداء غطاها التراب، أزال عنها التراب كانت خالية تمامًا.. ملأها بالاب توب وسماعته وكتاب ما وراء الخير والشر لفريديك نيتشه وبعض القمصان الخفيفة وبنطال وحذاء،

وأخرج ورقة قطعها من كشكول وكتب عليها جملة بالخط الكبير وعلقها على الباب واتجه إلى بيت والده الذي كان هو أيضا خاليًا والشرفة مفتوحة على مصراعيها... أخرج من الكامدينو الخاص به ١٠٠٠ جنيه ودفتر يومياته صديقه الوفي.. وأخرج ورقة أخرى وكتب عليها نفس الجملة وعلقها على الباب قبل أن يخرج.

في الشارع لم يعرف شهاب إلى أين عليه الذهاب، فقط يعرف جيدًا أنه عليه الابتعاد عن هنا قدر الإمكان... اختار شهاب البحر كوجهة أولية له فهو متيقن أن البحر بإمكانه أن ينسيه كل شيء وأن يكون له ذلك الحضن الدافئ .. عندما وصل إلى البحر وتأمله وما تحمله أمواجه من أسرار، كم شخص أتى إلى هنا لكي يرمي كل أحزانه ولكن للأسف الماضي لا يمكن نسيانه.

جلس على إحدى الكافتريات الفاخرة .. يعلم أن هذه الأيام قد تكون آخر أيامه هنا، فلا مانع من بعض التبذير.. جاء نادل طويل القامة ذراعاه عضليان وشعره وذقنه كبيران.

- تؤمر بإيه؟

قال شهاب وعيناه معلقتان بالبحر:

- Ice cohclete لو سمحت.

- تؤمرني يا فندم.

نظر شهاب إلى السحاب وحاول لعب تلك اللعبة القديمة وهي النظر إلى السحب وربط أشكالها بأشكال حقيقية، فقط كي يزيل

عنه التوتر... حتى في تلك اللعبة الطفولية لم يتركه الماضي وشأنه.. فهذه السحابة تشبه روان وهذه تشبه أمي وهذه تشبه الشيخ أحمد أبو السيد... في الحقيقة كان شهاب كلما يرى شخصًا يرتدي جلبابًا ويطلق لحيته يتذكر أحمد أبو السيد، نفس الشكل تقريبًا ونفس التفكير.. ولكن من تأتيه الفرصة.

وجه رأسه إلى التلفاز.. صور لجثث بشرية متقطعة الرأس وأخرى الأيدي، ما يقارب العشرات لا بل المئات، دماؤهم تختلط بالرمال فتمحوا لونها الأصفر... كان سيقول إنه مشهد من فيلم رعب أو أكشن دموي ولكن يتضح بسهولة أنها نشرة أخبار، زاد فضول شهاب لمعرفة ما هذا رغم أنه لا يتابع نشرة الأخبار كثيرًا ولكن التلفاز كان بعيدًا عنه فلا يسمع شيئا ولا يستطيع أن يميّز الكلمات، فلما أتى النادل ذو الكتلة العضلية سأله شهاب عن هذا الحدث الذي كان يعرض في التلفاز، فقال بعد أن تغيرت نظرته للحزن:

- دول ناس مسايحة كانوا رايحين دير.. طلع عليهم شوية دواعش ربنا يلعنهم قتلوا كل حد كان هناك، بنات، عواجيز، عيال صغيرة، ما سابوش حد، لا ومش بس كده أخدوا كل الدهب والفلوس إلى معاهم.

فوجئ شهاب، هل حقا يحدث مثل هذا للمسيحيين؟ هل وصلنا إلى هذا الحد؟

لاحظ النادل على شهاب علامات الاستغراب والصدمة فتركه لحاله... تذكر شهاب وجه أحمد أبو السيد ووجه والده... ولكن من تأتيه الفرصة.. شرب شهاب طلبه وهو يحاول الاستمتاع بمشهد البحر ولكن هذا الخبر سرق منه بقية معاني الاستمتاع.

دخلت والدة شهاب البيت يحمل أخوه عنها أكياس الخضار والبقوليات وما إلى ذلك.. وعندما لم يجدا شهاب في الشقة ظنا أنه ذهب إلى والده، وبعد فترة وقعت عين والدة شهاب على رسالة مكتوبة على الباب "إلى اللقاء في مكان أسوأ" لم تستوعب معنى الرسالة ولكنها كانت كافية ليجن جنونها.

❊ ❊ ❊

٥

توجه شهاب إلى قبلته التالية وهي شاطئ العجمي، بعد أن دفع تذكرة الدخول ألقى جسده على الرمال البيضاء، استلقى ناظرًا إلى السماء، مع تتابع السحب ومشهد غروب الشمس غلبته عيناه وراح في نوم عميق.

في منزل والده ولج الوالد إلى الداخل، لم يكن يتوقع وجود أحد فلم يبحث عن أحد.. وبالمصادفة وقعت عينه على ورقة مكتوب عليها بخط كبير تعرف عليه بسهولة "إلى اللقاء في مكان أسوأ".

صوت طبول وزغاريد وأبواق سيارات أيقظت شهاب، لقد كان زفاف شخص ما، نهض شهاب وكان من الواضح أن الليل قد جَن عليه بنجومه التي يكاد يجزم أنه إن أوصلها ببعضها ستعطي صورة روان.. ومشى بخطوات ثقيلة على الشاطئ الرملي وآثار أقدامه تطبع عليه، يفكر في الخطوة التالية، أين سيبيت ليلته؟ ليس لديه بطاقة كي يستأجر غرفة في فندق.. ولكن قبل التفكير في هذا عليه أن يملأ معدته أولاً،

توجه إلى فود كورت سان ستيفانو وهو من أفضل الأماكن للأكل.. المكان مزدحم ومليء بالأشخاص، بالكاد استطاع شهاب أن يجد لقدمه مسلكًا.. هذا العدد من المطاعم يحير أي شخص يختار، اختار في النهاية مطعم ماكدونالز، واختار وجبة عائلية من شدة جوعه.. أمسكها وشرع في رحلة البحث عن مكان يأكل فيه، ولكن كل ما يقع نظره على مكان يجده مملوءًا بأشخاص مازالوا في بداية أكلهم.. باءت كل محاولاته بالفشل، فخرج هو ووجبته إلى صديقه الجديد البحر الذي توطدت الصداقة بينهما قريبًا، وأنهى وجبته العائلية سريعًا رغم أنه لم يتوقع أن ينهيها، شكا للبحر عدم قدرته على النوم في أي مكان، فقال البحر بحكمة:

- روح القاهرة ونام حتى لو ساعة واحدة يبقى ضربت عصفورين بحجر واحد؛ بعدت عن أهلك ونمت شوية.

- بس أنا ماقدرش أسيبك في اليومين إلى هعيشهم دول.

- ولا أنا.. بس لازم تسيبني كمان دي أحسن حاجة تعملها دلوقتي انتا فاكر إن أهلك هيسبوك عادي كده؟ تبقي عبيط، دول هيلفوا عليك اسكندرية كلها.

حاول شهاب أن يقنع نفسه بعكس ذلك ولكن هذا فعلا الحل الأمثل:

- أروح إمتى؟

- في أقرب وقت.. دلوقتي.

اقتنع شهاب بنصيحة صديقه فتوجه إلى محطة مصر الساعة الحادية عشرة والنصف والقطار سيتحرك في تمام الثانية عشرة.. أخرج كتاب الفلسفة وقرأ فيه بضع صفحات حتى أتى القطار.

❊ ❊ ❊

في بيت والد شهاب اتصل لأول مرة منذ أكثر من عقد بزوجته أو من كانت زوجته.. رن الجرس وفتحت بعد الرنة الثالثة وقالت:

- الو.

هذا الصوت الذي عذب صاحبه كثيرًا.

- ألو أم شهاب.

عرفته من طريقة كلامه.. ساد الصمت قليلا لا يعرف أحد كيف يكسر جبل الجليد هذا.. قالت أم شهاب:

- عايز إيه؟
- شهاب عندك؟

قالت وقد باغتها السؤال:

- لأ عندك انت.
- لأ أومال إزاي.
- مش عارفة الساعة داخلة على عشرة.

❊ ❊ ❊

في بيت روان كانت روان نائمة مثل باقي عائلتها، إلا محمد الصغير يجلس على السرير والأرق يحالفه.

صوت طرق الباب بقوة.. لم يوقظ أحدًا رغم اقتراب المسافة بين الباب والغرف، كان محمد في غرفته مع روان وشيرين،

تسارعت دقات قلبه، من تراه يدق الباب بهذا الشكل وفي هذا الوقت إلا شخص أتى لسوء.. أيقظ روان:

- روان روان.

فتحت عينيها الجميلتين بتثاقل:

- ايه يا محمد مش عارف تنام تاني؟

- آه.. بس لأ...

وقبل أن يكمل كلامه كانت روان قد انتبهت لصوت قرع الباب.

ففزعت من السرير قائلة :

- في إيه؟

- مش عارف صحي شيرين وأنا هاصحي بابا وماما وكريم.

هزت روان شيرين بقوة حتى استيقظت:

- في إيه؟ في إيه؟

قالت روان بصوت يشبه الصراخ:

- اصحي.

جرى الدم في عروقها من صوت قرع الباب ونظرت لروان نظرة تريد توضيحًا، فردتها روان بنظرة من لا يمتلك أي توضيح.

دخل محمد إلى الغرفة وأضاء النور، استيقظ الأب والأم وكريم وقبل أن ينطقوا بكلمة كانوا قد علموا أن هناك خطبًا ما من هذ القرع وتبادلوا النظرات.. لا يوجد عند أحد منهم أي تفسير، قام الأب وكريم من على السرير والتقفا شومة من المطبخ وتوجها إلى الباب كي يفتحاه.

❊ ❊ ❊

٦

وصل قطار القاهرة إلى محطة مصر بالإسكندرية.. خرج من القطار أعداد كبيرة من الناس يحملون حقائب سفر وبط وإوز وطعام كثير رغم أنهم بسهولة يمكنهم شراؤه من هنا، وبعض المجندين وطلاب الأزهر في الكليات يقضون أيامًا قليلة مع أهلهم، أغلق شهاب الكتاب وأدخله في حقيبة ظهره ودخل إلى القطار لأول مرة في حياته، ولكنه كان دائما يراه ويرى الازدحام في داخله.

غطى أذنيه بالسماعات واستمع إلى شوبان وشرع في الكتابة في دفتر مذكراته، أهمّ شاهد على ما يحدث.. سرد لصديق طفولته ما حدث له اليوم وكيف نفذ قرار الهروب من المنزل، وكيف أن أيامه هذه قد تكون آخر أيامه على هذا الكوكب.. شعر بالنعاس فنزع السماعات وتوقف عن الكتابة وألقى نظرة أخيرة على القطار من الداخل.. سيدات سمينات يرتدين ملابس بسيطة وشباب يعبثون بهواتفهم ومعظم من في القطار يحاول النوم كما سيفعل الآن.

استيقظ شهاب على يد تهزه وتقول بصوت نافد الصبر:

- انت يا بني.. يا بني.. انت مُت وللا إيه؟

يفتح شهاب عينيه فيطمئن الرجل أنه على قيد الحياة:

- اصحى يابني إحنا وصلنا القاهرة.

- وصلنا القاهرة؟

لم يرد الرجل عليه وذهب.. القاهرة بلد جديد تمامًا عليه، لا يعرف عنها إلا ما قرأه وما سمعه ولكن لم يعاينه يومًا.. ماذا سيفعل وهو معه ٢٠٠٠ جنيه فقط؟

❊ ❊ ❊

يفتح الأب وكريم الباب ومن خلفهم روان وشيرين ومحمد، جميعهم مرتعشون وخائفون، يرى الأب رجلاً أربعينيًا متوسط الطول ذقنه طويلة وجسمه متماثل، وشابًا ما بين الثامنة عشرة والعشرين حليق الرأس مع شعر ذقن وجسم رياضي ذي كتلة عضلية، وامرأة ترتدي جلبابًا أسود، يقول والد روان:

- في إيه يا عم انت؟ عايزين إيه؟

يقول الرجل بلهجة عدائية:

- فين الولا؟

وتزيد المرأة:

- إحنا عارفين إنه معاكوا هنا.

يركل الفتى ذو الكتلة العضلية كريم في معدته بقوة تجعله يفلت الشومة ويمسك معدته.. صرخت الأم وشيرين، أما روان فلا، لقد اتضحت الصورة لها تمامًا، لقد هرب ذلك الفتى من المنزل.. أما محمد فيرى أن هذا هو التطور الطبيعي للأحداث.. يمسك الرجل

الأربعيني بالأب ولكن الأب أضخم وأقوى فيدفع الرجل بيديه ويلقيه، فتصرخ المرأة بفزع وتتعالى الأصوات حتى يلاحظ بعض الأشخاص في الشارع ويأتون لكي يروا ما يحدث في هذه الساعة... حاول البعض فض الاشتباك، وبعد عدة المحاولات استطاع الأشخاص إبعاد العائلتين عن بعضهما، سأل رجل يبدو أن موعد نومه قد حان:

- في إيه بس يا حج؟ ده انت شكلك راجل كبّارة.

يقول الملتحي غاضبًا: دول خطفوا ابني.

يقول الرجل بدهشة:

- خطفوا ابنك؟ انتوا متأكدين من الكلام ده؟
- ايوه طبعا متأكدين، مين غير العيلة الوسخة ديه هتخطفوا؟

وفي الشقة سأل أحد الأشخاص أبا روان:

- في إيه يا عم أحمد؟ مين الناس دول؟

يرد كمن ينفي عنه جريمة:

- والله ما أعرفهم يا عم شريف، رزعوا وبيمدوا إديهم علينا بس عملنا معاهم الصح.
- يعني ديه أول مرة تشوفهم؟
- والله أول مرة يا عم شريف.

❊ ❊ ❊

نزل شهاب في محطة مصر بالقاهرة، مكان واسع ومليء بالبشر.. الساعة تقارب الثانية صباحًا، لم يسر الأمر كما كان يتوقع.. كان يتوقع أن ينام أكثر من هذا.. عندما رأى هذا المنظر الناس يروحون ويأتون والقطارات ما زالت تجيء وتذهب والأنوار تصفع الأعين.. فعلا القاهرة لا تنام، أخذته قدماه إلى تاكسي في الخارج، يعلم جيدًا أنه سينصب عليه، أوصله إلى خان الخليلي.

السوق تمامًا كما رآه في الصور، ولكن وقعه على القلب مختلف تمامًا، سائحون في كل مكان وبائعون يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن ينصبوا عليهم.. صناعات مصرية أصيلة غزل ونسيج وتماثيل فرعونية وملابس تقليدية.. لفتت انتباهه سائحة شقراء من نفس سنه أو أكبر قليلا، ترتدي تشيرت "بولو" أزرق وشورت فوق الركبة، تعتبر مثالاً لكل ما يجب أن تحتويه الفتاة الأوربية المثيرة.. فكر شهاب في أن يكلمها، يمكنها أن تجيب إجابات لعدة أسئلة أرقته ليالي كثيرة.. شعر شهاب بنوع من التردد والخوف، فجاءه صوت من داخله:

- ممَ تخاف؟ أيام معدودة على كل حال.

أحس بالثقة بعد ما قاله هذا الصوت الداخلي.. شيء غريب أن يحس المرء بالثقة عندما يعلم قرب موته.. اقترب شهاب من الفتاة التي كانت تبحث عن شيء يناسبها من ضمن آلاف القطع التذكارية، وعندما اقترب منها بقدرٍ كافٍ قال بلغة إنجليزية متقنة:

- أهلا

نظرت له الفتاة وابتسمت معلنة عن صفين من لؤلؤ نقي ناصع البياض:

- أهلا
- في الحقيقة لقد رأيتك تسيرين وحيدة وكذلك أنا، فقلت لماذا لا نقضي القليل من الوقت سويًا.

الفتاة وهي تهز رأسها تأكيدًا

- بالطبع بالطبع، هذا يسرني جدا، أنت مصري أليس كذلك؟
- نعم ولكني لست من هذه المحافظة، أنا من الإسكندرية.
- أووه الإسكندرية.. الإسكندرية هي وجهتنا التالية، وأنت ما هي وجهتك التالية؟

استذكر شهاب ما ينوي فعله في الأيام القادمة:

- أنا.. أنا في الحقيقة لا أدري ما هي وجهتي القادمة.

قالت الفتاة بضحكة خافتة:

- كيف لا تدري؟
- لست أنا من يحدد رحلتي بل هو شخص آخر.
- كذلك إذن ؟
- ما اسمك؟
- كولوديا، وأنت؟

- شهاب.
- شهاب؟
- أجل، من أين أتيتِ؟
- من هولندا، مقاطعة دريئة مدينة إسن
- إن هولندا جميلة.
- نعم إنها كذلك وأيضا مصر ساحرة.

قال شهاب في نفسه: هذا لأنك سائحة فقط.

- نعم فعلا.. ما رأيك يا كولوديا أن نذهب إلى قهوة الفيشاوي لنتبادل الأحاديث؟
- حسنا.

وفي الطريق أخبرت كولوديا شهاب أنها هنا مع عائلتها في رحلة قصيرة وأن عمرها ١٨ عامًا، لكنها لا تنام بسهولة فذهبت للتمشية، وأنها في الصف الثالث الثانوي، وتمر بالدورة الشهرية، وحتى هذه اللحظة لا يعرف لماذا أخبرته بهذه المعلومة التي جعلت وجهه يحمر خجلا كحبة طماطم يافعة... وأخبرها أن عمره ١٦ عامًا وأنه يحب الاستماع إلى الموسيقى والقراءة وأنه في الصف الثالث الثانوي وتناسى الجزء الذي يتحدث عن هروبه من المنزل... وعندما وصلا إلى المقهى كان مليئًا إلا بعض الكراسي القليلة، جلست هي وشهاب على كرسيين بالقرب من اثنين مثقفين من ذوي الفكر الحر، طاولتهما عليها بعض الكتب لكارل ماركس وكتاب أصل

الأنواع لدارون.. طلب شهاب مشروبه المفضل ice choclete وطلبت هي تمر هندي بحكم كونها سائحة تريد أن تجرب المشروبات المصرية.. سألها شهاب بجرأة:

- لماذا قلت لي عن دورتك الشهرية؟

بدا عليها أنها لم تستوعب السؤال، وبعد عدة ثوانٍ في محاولة فهم السؤال قالت:

- ولماذا لا أقول لك؟ شعرت برغبة في قول ذلك فقلته.
- ألم تشعري بالإحراج؟
- إحراج من ماذا؟
- لا تهتمي.
- أنت فتى غريب تمامًا.

أخرج شهاب المال من الحقيبة فاضطر مع ذلك لإخراج الملابس وسماعته واللاب توب لأن المال كان في آخر الحقيبة... نظرت كولوديا إلى ما يفعله ثم قالت:

- هل تعلم؟ أنت تبدو هاربًا من المنزل.

ترك شهاب كل ما في يديه وقال بارتباك:

- ماذا؟ كيف علمت؟
- إنه مجرد تخمين.
- لا.. أنا مسافر.
- حسنا ما بك؟

- سكت الاثنان ثم قالت كولوديا:
- لقد فعلتها من قبل.. هربت من المنزل من قبل...

لم يكن يتوقع أن تكون هاربة وأيضا الطريقة التي تكلمت بها هادئة بشكل مبالغ فيه:

- وهل عدتِ للمنزل مرة أخرى
- بالطبع عدت.
- وهل آذاك أهلك؟
- لا.. فقط حاولوا أن يفهموا لماذا هربت ويحلوا المشكلة.
- اممم، أما أنا فإن عدت فسأقتل بالتأكيد.

استوقفته كولوديا كأنها كانت تنتظر قولا مثل هذا:

- آهاه، لقد أوقعك لسانك، إذن أنت هارب.

أحس شهاب أنه لا مفر:

- نعم أنا هارب من المنزل.

لم يبدُ عليها أي انفعال مبالغ فيه:

- لماذا إذن؟
- أسباب كثيرة.
- لا تريد أن تتكلم؟
- في الحقيقة لا.
- حسنا كما تريد.

استعاد شهاب شجاعته وقال:

- وأنت.. لماذا هربت من المنزل؟

يبدو أنها كانت تتوقع مثل هذا السؤال وتستعد له:

- لقد هربت بسبب ميولي الجنسية.. فأنا مثلية وأثار هذا غضب أهلي، فقرروا عرضي على طبيب نفسي ليشخص حالتي، وعندما قال الطبيب إنه لا حرج في ما هو طبيعتي.. جن جنون أهلي، كيف ميول طبيعية؟ مع العلم أنهم ليسوا بمستوىً عالٍ أو حتى متوسط من الثقافة، نفسيتي كانت شبه مدمرة.. لم أستطع التصرف كما يريدون ولا أن أفهمهم طبيعتي.. تواصلت مع صديقتي الحميمة وكنت قد ابتعدت عنها لمدة أسبوع بسبب ما حدث وكانت تدعي ماتيلدا، قالت لي إنها حدث لها نفس ما حدث لي، وأن قول الطبيب وردة فعل الأهل كانا مطابقين.. بكينا في التليفون معًا، عاودنا الاتصال ببعضنا يومين متتاليين حتى علم أهلي بطريقة ما بعلاقتي بها رغم أني لم أدلِ بذلك، نهبوا هاتفي وحبسوني في المنزل.. أضربت عن الطعام والماء ليومين ولكن سرعان ما أضناني الجوع، كنت على شفير الموت، إما أن أشرب وإما أن أموت، قررت الأكل ولكن ليس في المنزل.. هربت من المنزل ليلا وذهبت لمكان أعلم جيدًا أن ماتيلدا لا تغادره، مكتبة المدينة وبدون مفاجأة وجدتها

هناك.. هلّت لرؤيتي احتضنتني وقبلتني، من سعادة اللقاء نسينا كل شيء حتى أساميناً.. بعدها سرد كل منا إلى الآخر ما حدث معه، وسردت لها كيف هربت، راقت لها فكرة الهروب فنفذناها سويا وعشنا في فندق بعيد نسبيًا بضعة أيام من العشق والحب والغرام.. نعم لم نستقر في فندق، نعم كانت جميع الفنادق التي عشنا فيها أشبه بمعتقلات للمجرمين، ولكننا كنا نمتلك بعضنا.. عشنا يومين نسينا فيهما أهلينا، وبعد ذلك تذكرناهم، يا ترى ما أثر الصدمة تلك عليهم؟ هل أخطأنا في حقهم؟ لا.. بل هم من أخطأوا في حقنا، فهم عاقبونا على جريمة ليست بجرم، وإن عوقب عليها أحد فيجب أن تكون الجينات.. بعد فترة لا أتذكرها جيدًا نفذنا مخاطرة بأرواحنا، فكرة مجرد التفكير فيها شيء مجنون.. على ضوء القمر في إحدى الليالي التي تحكمها الرومانسية بدأت كفكرة عابرة، وما لبث أن أدى الضمير دوره قررنا أن نعود إلى أهلينا.. ولكن الصادم كان في أهلينا، فلقد تغيروا ١٨٠ درجة يا شهاب، رحبوا بنا وانهالت الدموع وكلمات الأسف وجملة "نحن نفهم ميولك" تذكر في وسط الكلام.. بعد هروبنا أحس والدانا بتأنيب الضمير مع الحزن والهلع، فبحثوا عنا وبحثوا في

الأمر ولم يجدوا مفرًا من تقبل ميولنا.. وعشنا أنا وماتيلدا وعائلتينا معا في وئام وسلام.. وانتهت القصة..

قال شهاب وهو رافع حاجبيه:

- واااو.. إنها قصة جميلة وغريبة، نحن هنا لا نعترف بالمثلية وحقوقها.
- نعم أعلم ذلك.. ما رأيك في المثلية؟
- مثل رأي المجتمع.

فكر شهاب في نفسه:

- ما هذه الفتاة؟ إن قصتها غريبة.. أم تراها ذات خيال واسع وألفتها لكي أقول قصتي؟

وفي ثوانٍ أحس شهاب بتفاهة ما يفكر فيه.. رشفت كلوديا آخر ما في كوب التمر الهندي والـ ice choclte ما زال أمام شهاب لم يمسسه، قالت كلوديا:

- ألم تطلب هذا؟
- نعم نعم.. لقد أنساني كلامك المشروب.

ارتشف شهاب ربع الكوب وقال محاولا جذب انتباهها:

- كلوديا
- نعم؟
- هل تريدين معرفة قصة هروبي؟
- نظرت له وقالت محاولة إخفاء رغبتها الملحة في ذلك:

- نعم ولكن لا أريد مضايقتك.

سكت شهاب محاولا إضفاء بعد درامي ونجح في ذلك.. وبدأ في سرد حكايته، أمه.. أبوه.. وحدته.. صديقاه اللذان فارق أحدهما السقف ودفتر اليوميات، وروان وأحمد أبو السيد ولماذا أتى إلى هنا، سرد لها ما لم يسرده لذي كبد من قبل.. كانت كلوديا تسمتع لكلامه مع سقوط قطرات عرقها كالمطر، وتشير لمدى تأثرها وعيشها مع الأحداث.. وشهاب يكاد يبكي وهو يحكي قصته.. وبعد أن انتهى شهاب من حكايته انتظر ردًا أو تعليقا ولكن كلوديا كانت تقول في نفسها:

- لا تعليق على اي شيء قاله ما هذا الشخص الذي القاني امامه الله

وبعد عضة ثوان فقد شهاب الامل في ان تعقب ولكنها قالت:

- هذه قصة غاية في الغرابة والتأثير .. ولكن هناك شيء لا افهمه لماذا عوقبت عندما قلت لهذه الفتاة المجنونة بحبك لها.
- لا تقولي عنها مجنونة.. فقبل كل شيء أنا أحبها.. أما إجابة هذا السؤال فهي إن قلتِ نفس هذا السؤال لها فسيكون بنفس غرابة سؤالي لكِ عن سبب قولك لي عن عادتك الشهرية.. للأسف الشديد نحن هنا نفسر الحب نوعا من أنواع الانحطاط ونعتبر العقدة النفسية شرفا

وعفة.. أن يكلم شاب فتاة لا يعرفها وليس من أهلها فسيقال عن هذه الفتاة عاهرة، لماذا؟ نعود لمفهوم العفة الخاطئ.. أتعلمين يا كلوديا؟ مفهوم العفة هو شيء مبهم، فهناك من يظن أن العفة هي النقاب وتغطية الفتاة بالكامل برداء أسود، وهناك من يقول الحجاب هو تغطية الرأس، وهناك من يقول عدم التحدث إلى الأولاد.. أما أنا فأرى أنهم جميعًا خطأ، فمفهوم العفة شخصي، من يحدده هو الفتاة نفسها، هذه هي حياتها يجب أن تعيشها بحريتها الكاملة بدون أن يملي عليها أحد ما تفعل..

مالت كلوديا برأسها تجاهه وأشارت بيديها له أن أكمل كلامك.

- نحن يا كلوديا نعيش في مجتمع إن تكلمتِ عن الحرية فأول ما سيبدر في ذهن الناس الحرية الجنسية.. لا نفكر في حرية الرأي أو الإبداع أو الحرية الشخصية.. يقول ميشيل فوكو إن أكثر الشعوب تحريمًا لشيء هم أكثرهم هوسًا به.. نحرم العلاقات بين الجنسين وبعدها نهيم في الروايات الرومانسية وهي الأكثر مبيعًا عندنا.. نحرم الأفلام الإباحية ونحن أول الشعوب مشاهدة لها.. التحريم وحده لا يكفي.. ما نفعله هو كذب على أنفسنا، نحن نريد أن نعيش في وهم، والوهم هو ما يكوّن عندنا

الكبت، والكبت هو ما يجعلنا الأوائل في مشاهدة الأفلام الإباحية، وهو ما يجعلنا نتحرش بالنساء بل أحيانا كثيرة الأطفال والتماثيل.

سكت شهاب وأمعن في النظر في عيني كلوديا، إنها ملامح شخص يسمع قصة خيالية عن معاناة ساندريلا أو ما شابه وهو يتكلم بلسان الواقع.. أحس بإحراج من كلامه، أحس أنه يتفلسف بكلام سخيف على فتاة مسكينة، نظر إلى الأرض محرجًا ظنت أنه يبتلع ريقه ولكن عندما صمت تمامًا قالت:

- ما بك شهاب؟
- لم تتلق ردًا فقالت:
- ما بك؟ هل تبكي؟

رفع وجهه ليريها أنه لا يبكي ولكنه كان متعبًا جدًا:

- كلوديا أريد منك طلبًا.. أريد النوم في أي مكان ولو لساعة واحدة.
- تريد النوم؟ حسنا الفندق ليس بعيدًا من هنا، إنه مسافة عشر دقائق بالسيارة، سأوصلك إليه.

شكرها شهاب بوهن، دفع شهاب الحساب لهما واستقلا سيارة أجرة، أخبرته بمكان الفندق بعربية مكسّرة وما لبث أن لامس شهاب المقعد حتى بدأ في النوم.. تأملته كلوديا وهو في هذه الحالة وتأملت قصته، أحست أن هناك بعدًا ناقصًا في قصته، لا يمكن

لمجرد انفصال والديه ورفض من حبيبته ووحدته أن تكون عوامل للهروب من المنزل فهو ليس مضطهدًا.. عند الوصول إلى الفندق المطل على النيل أيقظت كلوديا شهاب بأصابعها الرقيقة وجعلت تهزه:

- استيقظ استيقظ.

ولأن نوم شهاب ثقيل اقتربت منه حتى أصبح تقريبًا صدرها ملاصقًا لصدره، استيقظ شهاب ليرى صدرًا يرحب به مع عينين مثيرتين.. انتفض شهاب للخلف، تلك أول مرة تقترب منه فتاة بهذا الشكل:

- لقد وصلنا.

فندق يسمى وادي دجلة أبيض اللون، وعلى الرصيف توضع صواري بأعلام جميع الدول العربية.. يتكون الفندق من حوالي خمسة طوابق، وعلى الباب هناك رجل مصري يرتدي قميصًا لبني اللون وبنطالا كحلي اللون، وفي جنبه يعلق جهاز اتصال لا سلكي، تحيّيه كلوديا فيرد السلام كرجل آلي.. وفي الداخل أشخاص كثر يرتدون نفس الملابس وهي تلج للداخل هي وشهاب الذي يبدو أنه خارج من حانة ما وقد أعماه السكر، أوقفتهما فتاة عشرينية شعرها قصير أسود تقف في الاستقبال، قالت بابتسامة:

- آنسة كلوديا.

فالتفتت لها كلوديا وردت بابتسامة أكبر:

- نعم؟

- أهلك ليسوا موجودين فتفضلي مفتاح الغرفة.

نظرت لها كلوديا باستفهام وهي تقترب لتأخذ المفتاح فردت الفتاة نظرتها قائلة:

- لقد ذهبوا في رحلة بحرية.

وفي طريق صعود السلالم استوعب شهاب ما قالته الفتاة في الاستقبال، أهلها في رحلة بحرية لا أحد في المنزل، اهتز جسده من الخجل والتوتر، ألا يمكنني أن أنام مع هذه الفتاة في غرفة واحدة وحدنا.. وبدأ يدور في ذهنه خيالات جنسية وأنها ستراوده عن نفسه بالتأكيد، ابتلع ريقه بصعوبة عندما وصلا إلى الغرفة في الطابق الثاني رقم ١٧ ، بدأ بشكل لا إرادي بصورة هذه الفتاة وهي عارية.. وعند الدخول وقف شهاب بجانب الباب ولم يتحرك:

- ادخل.

نظر لها شهاب بريبة ولكنه دخل.. سألته هل تريد النوم أم نشرب شيئًا سويًا؟ قال:

- النوم.

- حسنا، غرفة النوم هي الثالثة على اليمين.

مشى شهاب إلى الغرفة مسرعًا.. باب الغرفة أبيض اللون كحال كل شيء تقريبًا في هذا الفندق، وفي الداخل كانت الغرفة أصغر قليلا من غرفته في بيت والده، ولكنها أكثر فوضوية، سرير بلون الفندق المفضل ومكتبة صغيرة للروايات وصور لمارلي سايرس في جميع

الأوضاع وفي كل النواحي، لا يعرف لماذا وضعتها وهي ستغادر الفندق قريبًا، وأكثر ما لفت انتباهه صورة مبروزة وضعت على مكتب بجانب السرير لفتاة يبدو أنها كلوديا تقبل فتاة أخرى استنتج بسهولة أنها ماتيلدا.. ارتمى على السرير الفوضوي.. ما زال يتوجس بل في الحقيقة يتمنى أن تدخل كلوديا الغرفة عارية ويمارسان الجنس، ولكن تلك الصورة أكدت له أنها فعلا مثلية، ومن ثم غط شهاب في نوم عميق.. وفي الصباح استيقظ شهاب ليرى وجه كلوديا ترتدي شورتًا منزليًا وتيشرت واسعًا برتقالي اللون وشعرها الأصفر حولها.. كانت مثيرة ولطيفة ولكنها كانت لطيفة بشكل أكبر بالنسبة له، أمعن النظر فيها وتأكد كم هي لطيفة وبريئة وأنها فعلت له جميلاً لن ينساه طيلة حياته، فقرر أن يتركها ويرحل لا يريد أن يعكر صفو رحلتها، فهو لن يخبر أحدًا بما ينوي أن يفعله بعد أيام قليلة ولكنه سيفعله.. أخذ ورقة وقلمًا وبدأ يكتب "عزيزتي كلوديا، شكرًا على سماحك لي بالنوم في سريرك، لقد كنت فعلا أحتاج ذلك وشكرًا على تلك الساعة الممتعة في المقهى وأتمنى أن لا تزعجك فعلتي هذه ولكن هذا أفضل لكِ.. أنت فتاة رائعة أتمنى لك حياة رائعة مع ماتيلدا وأوصلي سلامي لها، المخلص شهاب" وضعها بجانب الصورة وخرج من الفندق.. عليه الآن العودة إلى الإسكندرية، ركب قطار الواحدة ظهرًا من محطة مصر.. وفي القطار أخرج لابتوبه الذي لم يستعمله منذ بداية

الرحلة، فلم يكن غريبًا أن يراه نافد الشحن.. لم يكن يريد الاستماع إلى الموسيقى أو القراءة، فقط يريد الأكل.. أخرج طبق الكشري الذي اشتراه قبل أن يدخل إلى القطار وتناوله وهو ينظر إلى الأشجار التي تمر مسرعة وإلى الأشخاص الذين يختفون في ثانية وإلى الطيور التي تطير فوقه بحرية، وفي جلسة التأمل تلك اكتشف شيئا ما، إنه يعشق النوم كثيرًا.. وصل إلى الإسكندرية بعد رحلة قصيرة من القاهرة.. وبدأ يتجول في شوارعها التي حفظها منذ نعومة أظافره ولكنه لم يحدد بعد ماذا سيفعل.

٧

استطاع الجيران أن يفصلوا بين العائلتين ويقلقهم غرابة الوضع، عائلة تعتدي على عائلة في منتصف الليل وتتهمها بخطف ابنها.. عادت عائلة شهاب إلى بيتها عازمة على الرجوع مرة أخرى إلى هنا.. مشاعر الدهشة والتوتر في بيت روان والجميع يعلم من سيلقى عليه اللوم.. روان.. نظر لها الجميع حتى محمد لم يكن أحد بالغباء الذي يجعله لا يستطيع ربط حوادث اليوم بحوادث البارحة.. قطع حديث الأعين الوالد وهو يقترب منها فيهوي بيديه على جسدها الضعيف قائلا باشتياط:

- في إيه يا بت؟ هاه؟

فتصرخ هي متألمة طالبة النجدة ولكن الجميع _ ماعدا محمد _ كان يظن أن هذا هو عقابها السليم بل حقها منهم وهي التربية السليمة، ظل الأب يضربها وعيناه تشعان غضبا وحزنا وخوفا، بركان من المشاعر انفجر عندما فقدت الأمل في أن يساعدها أحد، فصرخت ودموع الألم تنصب من عينيها:

- والله ما أعرف، والله العظيم ما أعرف.

فازداد الأب ضغطًا على ذراعيها حتى لقد كاد أن يفصل ذراعيها عنها.

أعادت الصراخ والاستنجاد وانهالت دموعها على السجاد العريق للأرضية، الألم الجسدي في ذراعيها لا يقارن بالألم النفسي من نظرات العائلة الراضية ومحمد المستسلمة كأنهم سيعيشون على ألمها.. وبعد أن جن الأب وكاد فعلا أن يفصل ذراعها ما كان منها إلا أن صرخت بملء حنجرتها: سااااابني سااااااابني

أطفأت هذه الكلمات نار الغضب في نفس الأب فترك يدها وتراجع إلى الخلف.. وتغلبت روح الأمومة في نفس أم روان والأخوة في نفس شيرين والأبوة في نفس كريم والوالد.. نظرت إليهم بعينين مهلكتين من الدموع ووجه أضناه الألم والبكاء، أدارت نظرتهاعليهم جميعًا فهبت مهرولة إلى غرفتها المشتركة وارتمت على السرير الذي أصدر صوتًا جليا بالصرير كأنه يصرخ مستنجدًا مثلما كانت منذ ثوان.. بكت وهي دافنة وجهها في الوسادة.. شعرت بموجة من الحزن غامرة تتشبع بها، هي تتدرك تمام الإدراك أن هذا ليس بسبب والدها الذي أهانها وضربها فهذا يحدث بشكل روتيني وعلى أشياء من قبل هذا.. تأخير على المنزل، شكوك (وسواس) من علاقتها بالشباب، جيبة ضيقة وإلى آخره، الأمر له سبب آخر لا تستطيع لمس أبعاده.. بسبب بكائها الهستيري عشر دقائق لا تفعل شيئا إلا إبلال وسادتها بالدموع، فشعرت بإنهاك وخمول في جسدها فرجعت وأكملت ما قطعته من نوم.

❊ ❊ ❊

تسير عائلة شهاب في الطريق إلى منزل الوالد، يقف نور حاجزًا بين والده وأمه.. يقول والد شهاب وهو يضرب كفا على كف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

قاطعته أم شهاب بسخرية:

- يا شيخنا.

وقع قلب نور في ركبته من هذه الكلمة، لا يريد حدوث مشاكل أمام الناس في الشارع.. لا يريد حدوث مشاكل على الإطلاق تعطل محاولة الصلح بينهما، لكن أبا شهاب لم يرد، ربما لم يسمع أو ربما لم يكترث فأكمل كلامه:

- على فكرة يا نور يا بني الناس دول عارفين إن أخوك مستخبي هناك ومخبيين.

أنهي الوالد كلامه بتكشيرة جدية مما زاد تصديق نور لكلامه، أومأ نور برأسه موافقا لكلامه إلا أنها شعرت أن كلامه سخيف وغير صحيح، ولم تزد عن ضحكة استهزاء لما قاله أبو شهاب.. أكمل أبو شهاب كلامه بنفس الثقة:

- أخدت بالك كانوا مخبيين البت وراهم ووسطهم إزاي؟ مدلعينها على الآخر، جوهرة بالنسبة لهم وأي حاجة تطلبها الجوهرة لازم تتنفذ، أخوك حبها عملت فيها شريفة وبعد كدة فكرت، واحد ابن عز معاه فلوس بس

عبيط، بت حلوة وعايزة فلوس، فتحتله حضنها والله أعلم فتحتله إيه كمان يا نور.

فأكمل نور كلام والده:

- راح هرب من البيت لبيتها.
- الله ينور عليك يا نور يابني بالظبط كده.

قال نور وهو يضرب كفًا بكف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تستطع أم شهاب أن تضحك ازدراءً أو تعقب بكلمة على ما قاله، ففعلا هي مؤمنة بكلامه وإن استهزأت فسيكون بشخصه وليس بكلامه.. وصلت العائلة إلى بيت والد شهاب وقال نور لوالدته إنه سيوصل والده إلى باب شقته، لم ترد سلبًا أو إيجابًا، فقط حملقت في باب العمارة، اعتبر نور ذلك موافقة فصعد مع والده.. وأم شهاب تمعن النظر في الباب وكأنها ترى نفسها وهي تخرج من الباب ونور في يدها ومعها شنطة سفر حزينة منكسرة، تذكرت القصة كاملة عندما تزوجت هذا الشيطان.. في يوم من أيام الزوجية التي كانت تبدو سعيدة وعلى السرير كانت هي نائمة ومنهكة بينما هو كان يخلع ملابسه ويقول لها:

- يلا قومي اقلعي.

فتقول منهكة:

- مش قادرة.

فيضحك هو كأنما تقول شيئا فكاهيًا ويقترب منها وهو عارٍ فتفاجأ وتدفعه بيدها بقوة تجعل إصبع قدمه الصغير يرتطم بالسرير، وذلك ما اعتبره إهانة كبرى وتقول:

- قولتلك مش عايزة.

فتستشيط عروقه ويهجم عليها بيده ويقول:

- يا بت مش عايزة إيه؟

ويسحبها حتى يقطع ملابسها، لم تكن تتوقع هذه المعاملة من هذا الشخص الوديع العارف لله، تركها الوالد سريعًا وخرج مستاءً، قالت له وهي تبكي:

- هسيبلك البيت وهمشي.
- أما نشوف.

وفعلا جمعت ملابسها متفاجئة بحقيقته، كانت تظن أنها ستنجب أطفالاً تربيهم في كنف الحياة الكريمة والعيش الرغد، كل هذا تحطم على صخرة الجنس، رآها الأب وهي تجمع ملابسها ولم يزد عن إلقاء نظرة ليتأكد أنها تجمع ملابسها فعلا، جمعت كل ملابسها واحتياجاتها الأساسية في شنطة سفر ستلازمها كل السنين القادمة، وتوجهت لتخرج، لم يقطع طريقها أحد حتى وصلت إلى الباب فرأته يجلس عاريًا أمام الباب على كرسي وفي يده سكين كبير، ويبدو أن أمره ليس تهديدًا عابرًا، عندما رآها همّ جاريًا إليها وفي يده هذا السكين، وعانته وكرشه يهتزان.

انفجعت وجرت هاربة إلى غرفة النوم في سباق تتوقف عليه حياتها، يقترب منها وهي تقترب من الباب، وصلت لباب الغرفة فدخلت وأغلقته سريعًا وأسندت جسدها السمين إلى الباب وهو يضرب الباب بيديه ويدفعه ويسب، وبعد حوالي خمس دقائق ذهب والد شهاب، ربما لأنه تعب ولكن أم شهاب لم تتحرك، لم تعد تأمن أن يعود مرة أخرى فيقتلها، لم تعد تأمن أي شيء.. بعد فترة لم تحصها تحركت وارتمت على سريرها الذي كانت ستغتصب عليه من قبل زوجها، ولبثت فترة ليست بقليلة تحدق في الفراغ بدون سبب أو مبرر حتى وجدت نفسها تسحب الشنطة وتخرج من الغرفة متوجهة إلى مخرج الشقة، كل الأنوار مغلقة ويبدو أنه نائم على أريكة السرير، لم يكن هذا مستغربًا بالنسبة لها فلقد كان أحيانا بعد الانتهاء من أموره في السرير ينام على الأريكة، ابتلعت ريقها واستجمعت شجاعتها ومشت للباب وفتحته حتى تقلب أبو شهاب في سريره وقال بصوت ناعس:

- أنت طالق.

كيف؟؟ كيف قالها بهذا الهدوء القاتل؟ وكيف سينتهي كل شيء؟ كيف سأعيش وأواجه أهلي؟ أقفلت باب الشقة لتواجه تلك الأسئلة.. جرّت حقيبتها وراءها لا تدري كيف حدث كل هذا، لكنه حدث، وفكرت ألا يمكن أن أكون أنا المخطئة، ما هي رغبتي أنا مقارنة برغبة زوجي، أنا لا شيء.. اتجهت إلى أهلها مستنجدة بهم

فتلقت أولا اللوم وبعدها ضموها بينهم عندما تفهموا أن هذا الرجل لا يرى أبعد مما بين قدميه، احتضنوها بينهم وكاد الأمر ينسى حتى جاء يوم أغبر أدت والدة شهاب اختبار الحمل من باب الحيطة فاكتشفت أنها حامل، انقلب كل شيء رأسًا على عقب، أصبح شغلهم الشاغل هو إرجاع الزيجة كي لا يربى هذا الطفل بعيدًا عن والده أو بالأحرى بعيدًا عن مال والده، فكادوا يقبّلون قدمه حتى يقبل طلبهم ورجاءهم، أقسمت إنها لن تعصيه أبدًا في السرير ولا في أي شيء آخر، ولكنه كان يجد متعة سادية في ردها خائبة، تواصلوا مع كل فرد في العائلة وتفاجأوا أنه ليس هناك أحد عاقل في هذه العائلة.. للدقة لا أحد عاقل في الداخل، فهناك أخ له اسمه مازن يعيش في إيطاليا صودف أنه في مصر في إجازة، توصلوا إليه وعرضوا عليه القضية كي يحلها وكان واضحًا أنه لا يدري أي شيء عن ما يحدث مع أخيه وأيضًا أعجبهم هدوءه ورصانته ولكن فاجأهم رأيه، وهو أن الطلاق هو أفضل حل وأن هذا الرجل مريض، لا يمكن العيش بجانبه، وحياة الطفل بأبوين مطلقين أفضل كثيرًا من العيش مع والد مجنون، بالطبع خيب أملهم قوله وسمعوه من أذن فأخرجوه من الثانية.. جاءت فترة لان فيها الأب ليس شفقة لهم ولا حبًا لزوجته ولا حتى خوفا على مصير طفله، فقط لكي يرضي غرائزه الجنسية.. أعيد الزواج للمرة الثانية وهنا أنجب نور.. وكان الوضع بين أم شهاب ووالده حذرًا،

فكانت تطيعه في كل أمر وتوافقه في كل رأي وتمجده في كل فعل، كانت خادمة لا تجرؤ أن تتكلم إلا في ما يرضيه، تطبعت بطبع الاستسلام خوفا على ابنها نور الذي عشقته وكان هو الوحيد الذي تتحدث إليه وتصغي له بكل جوارحها، طبعًا لأنه رضيع.. وفي يوم غلب الطبع التطبع.. اشتاطت غضبا عندما عاجلها في طلب الغداء وألقت عليه سبابًا وشتائم لم تنطقها في يوم أبدًا.. رغم شخصيته المريضة وحبه للضرب وكانت تلك فرصة ذهبية لكي يضربها لكنه وقف معجبًا بتلك الجرأة غير المسبوقة.. وعندما اقترب منها لكي يضربها دافعت عن نفسها، ليس ذلك فقط، بل آذته، كانت أشبه بمن انتابه حالة صرع.. ضربته بمجموع ما ضربها طيلة أسرها تحت ما يسمى الزواج.. تركته في ألمه واستغرابه وذهبت لتلملم ملابسها كما فعلت منذ سنة وشهر، ولكن تلك المرة هي من ضربت، هذه المرة كانت هي في موضع قوة.. كان طفلها الصغير نور ذو الشهرين يبكي من أصوات الصراخ، بيد أنه لا يفقه شيئا، جمعت ملابسها في حقيبة السفر نفسها التي شهدت على الهروب الأول والطلاق الأول.. لم تسعف والد شهاب شجاعته، لم يعترض طريقها بعد أن أخافته بقوتها.. خرجت من الشقة هاربة للمرة الثانية ولكن تلك المرة لم يطلقها.. خرجت وملامح الحزن تكسو وجهها ليس لشيء إلا لخوفها على ابنها الصغير.. وفي البيت واجهها والداها وإخوتها بالرفض القاطع، تلك المرة الثانية هذا كثير جدا..

اضطرت لكي تحمي طفلها من الفقر أن تبيع أسورتها وما أصعب أن تتخلى امرأة عن حليها واستأجرت شقة في مكان شعبي، ومع البحث الذي كان يصل إلى ١٢ ساعة في اليوم عن عمل يكفي مصاريف البيت الأساسية عملت في مدرسة ابتدائية كعاملة نظافة، وبعد الاستقرار جاءتها ورقة الطلاق من زوجها الذي لم تره مرة أخرى إلا في المحاكم، وفعلا كان هناك جلسات محاكم متتالية استخدم فيها الأب حجة أنها ضرتبه سابقا.. أحست أم شهاب وعائلتها أن الطاولة ستنقلب عليها، لذا أقنعوه أن يرجع كل شيء لآخر محاولة.. فعلا تم الأمر، وفي تلك الأثناء أنجب شهاب وبطبيعة الحال لم يستطع الاثنان التوافق أبدًا، وكانت تلك أول مرة يرى نور فيها أمه تنزف دمًا، بالتأكيد مع هذا الأب المجنون رأى والدته تضرب كثيرًا، ولكن أول مرة يراها تنزف دمًا.. هو في الحقيقة لم يرَ دمًا كهذا من قبل، كل علاقته بالدم هو عندما يجرح إصبع أحدهم.. بكى لعل قلب والده الذي يسمى بشريًا يلين، ولكن لم يحرك البكاء في قلبه شيئًا إلا أنه يريد إيقاف هذا البكاء، فأوقفه بطريقة مبتكرة.. ضربه كما يضرب سارقًا أو مجرمًا حتى أغمي عليه، ولم يمس شهاب الرضيع بسوء.. وخطوته القادمة هي أم شهاب، مارس عليها كل أنواع الضرب ولكن مع مراعاة ألا يقتلها.. وكانت الطلقة الثالثة ومعها فعليًا انتهى كل شيء.. انتهت كل الأرواح كما يحدث في ألعاب الفيديو، تركها تذهب بعد تواسلاتها

المذلة والمهينة هي وجثة ابنها نور ورضيعها شهاب ابن الثلاثة أشهر، وكانت تلك المرة قبل الأخيرة لها مع زوجها في البيت، فهناك مرة اتفقوا فيها مع شيخ كي يفتي لهم أن هناك طلقة لم تحتسب، وكان هذا في سنة شهاب السابعة، وحدث ما هو متوقع، وحتى هذه اللحظة لا تفكر إطلاقا في الزواج، لا منه ولا من أي أحد آخر.

بعد السباحة في الماضي الذي ظنت أن الأيام أخفته جاء ابنها نور، نظرت لوجهه بشكل مختلف، لم تنظر له على أنه ابنها فقط، بل نظرت له على أنه شخص عانى كثيرًا مثلها.. وفي تلك اللحظة بدأت تفهم لماذا هرب ابنهما؟

❊ ❊ ❊

٨

استيقظت كلوديا من النوم ومطت جسدها المثير كقطة بيضاء صغيرة ونظرت إلى صورتها هي وماتيلدا ووجدت بجانبها ورقة مقطوعة من كشكول، فتحتها وقرأتها وهي لاتفهم شيئا فلقد نسيت شهاب، وبدأت ليلة البارحة تتضح لها وهي تقرأ الرسالة حتى وصلت إلى جملة المخلص دائما شهاب، تذكرت تمامًا هذا الشاب الغامض.. لا عجب أن تكون رسالته غامضة، ولكنها حزنت للغاية، لقد كان شابًا وسيمًا والكلام معه ممتع، وأفضل ما فيه هو غموضه حتى لو كان مفتعلاً.. أي فتاة غير مثلية ستعجب به بالتأكيد.. قامت من السرير وكانت تسمع صوت عائلتها وهم يتحدثون بمرح فخرجت إليهم.. قال لها والدها وهو رجل أربعيني يعقد شعره الأسود الطويل بشكل ذيل حصان، ويمتلك جسدًا رياضيًا بدون أن يكون مفتول العضلات، قال لها بلغة هولندية:

- لقد استيقظتِ، هل استيقظ صديقك أيضًا؟

هزت رأسها بحزن وجلست على كرسي بجوار والدتها وهي أربعينية يقارب سنها سن زوجها، ولكن مع ذلك فملامحها توحي بأنها في العشرينيات، رشيقة القوام متوسطة الطول تترك شعرها الأشقر ينسدل بعشوائية، وفي العموم هي امرأة فائقة الجمال، فلم يكن

من العجب أن تفوز بجائزة ملكة جمال هولندا مرتين.. قالت والدتها:

- يجب أن نوقظه، سنذهب إلى الإسكندرية في خلال ساعات.

نظرت كلوديا إلى الساعة فوجدتها التاسعة وعشر دقائق، قالت كلوديا بحزن:

- لقد ذهب.

قال الجميع بنفس الوقت:

- ماذا؟؟

اعتقدوا أنها تقصد بلقد ذهب لقد مات، فقالت تتدارك الوضع: لا.. لا.. لقد ذهب من الفندق ليس من الحياة. طمأنتهم هذه الجملة وفي نفس الوقت وضعتهم في حيرة شديدة، سألها أخوها الأكبر ذو العشرين عامًا حليق الرأس واللحية، رفيع جدًا يرتدي تيشرت عليه صور لبعض الآلات الموسيقية، فهو يعشقها استماعًا وعزفًا، يستطيع أن يعزف على معظم الآلات:

- لماذا؟ هل تشاجرتما؟
- لم نتشاجر، أنا حتى لم أكلمه في الليل.
- إذن لماذا تركنا؟
- لا أدري، ولكنه ترك لي رسالة بجانب صورتي مع ماتيلدا.
- أحضريها.

وفعلا أحضرتها وقرأتها عليهم فازدادوا حيرة.. "لا أريد لحياتنا أن تكتمل مع بعض أكثر من هذا" أكثر من ماذا؟ أكثر من ليلة واحدة؟ وهل علاقتهما توطدت في ليلة واحدة؟ لولا تأكدهم من أنها مثلية لتفاقمت الشكوك في المنزل، قالت والدتها بعينين حائرتين:

- هذا عجيب.

فقال الوالد بغير مبالاة:

- هذا فتى مجنون يجدر بنا نسيانه كي لا تسوء رحلتنا أكثر.

طارت كلوديا من على الكرسي ودافعت عنه بحمية:

- لا.. إنه ليس مجنونًا إنه فتى غامض مثل Bat Man يمكن أن يكون يخفي سرًا عظيمًا، يمكن أن يكون قاتلاً متسلسلاً للمجرمين والحكومة تبحث عنه فقرر تركنا كي لا نقع في مشاكل.

ولكن كان يبدو أن لا أحد يستمع إليها، فالجميع إلا والدها مازالوا يبتلعون آثار الصدمة.. والجميع حتى كلوديا ووالدها يجمعون أن هذا الفتى مجنون تمامًا، ولكن مع نظرات مختلفة للجنون بشكل عام.. في تمام الساعة العاشرة كانت العائلة تحزم حقائبها استعدادًا للانتقال إلى الإسكندرية، محاولين تناسي شهاب بقدر الإمكان، استطاع الوالد أن ينساه بشكل كبير، أما البقية فلا.. ملأت كلوديا حقيبتها بملابسها وصورها مع ماتيلدا وصور مارلي

سايرس، أمسكت صورتها مع ماتيلدا التي كانت على المكتب، تلك احب صورها مع ماتيلدا إلى قلبها.. تذكرت أول مرة رأت فيها ماتيلدا وكيف أصبحتا صديقتين مقربتين، وكان كلاهما يعلم جيدًا أن الأمر يتعدى كونه صداقة، ولكن لم يكن منهما من يمتلك الجرأة كي يعترف بمثليته.. كان كلاهما من عائلة مسيحية ملتزمة.. بكت كلوديا ومعها ماتيلدا نادبات القدر الذي جعلهما مثليتين.. ومع الوقت تقبلت الاثنتان مثليتهما وواجهتا الأهل بشجاعة وكانت الخطوة التالية هي المجتمع، هل سيقبل؟ ماذا سيقول؟ ولحسن الحظ كانت ردة معظم المجتمع إيجابية، رد جيد، تقبلوهما ولم يرفضوهما، ليس ذلك فقط بل منهم من عرّفهما على تحالفات للمثليين، ولكن بعض الناس كانوا غير متقبلين، بالطبع هذا الكون مليء بالاختلافات ولكن هناك من لا يدري شيئا عنها.. ورغم كل شيء ها هي هنا اليوم وتفتخر بمثليتها.. فكرت أن تكلم ماتيلدا وأن تقص لها القصص.. هذه الفتاة مهما ساءت الأمور تحافظ على ابتسامتها.. سمعت صوت جرجرة عجل الحقائب على الأرضية فعلقت حقيبتها بظهرها، كانت العائلة تنتظرها بالقريب من الباب، والدها يمسك حقيبة سفر بعجلات عليها علم هولندا وأمها تحمل حقيبة ظهر كبيرة للرحالة سوداء اللون، وأخوها يحمل حقيبة ظهر عادية تحمل صورة العازف جون كلارك، وعلى ظهره جيتار ياماها، وكلوديا تحمل حقيبة ظهر وردية اللون.

أقفل والدها الحساب في الفندق وكان في انتظارهم أتوبيس رحلات متوجه إلى الإسكندرية، حجز والدها تذاكر فيه وعندما استقروا في أماكنهم تصفحت كلوديا صفحتها على فيسبوك ووجدت أن ماتيلدا أون لاين وتضع صورتها بشعرها الأحمر الناري المجعد، وعيناها الزرقاوان والنمش المتناثر على وجهها الطفولي وترتدي ملابس شتوية ثقيلة وخلفها رجل ثلج مصنوع بمهارة.. شعرت بسعادة بالغة.. مهما آلت الأمور إلى السيء فإن معشوقتها يمكنها إشعارها أن كل شيء على ما يرام.. أرسلت كلوديا:

- أهلا ماتيلدا.

فردت على الفور:

- أهلا كلوديا.. ما أخبارك؟
- أنا حائرة في الحقيقة.
- لماذا؟ أخبريني.
- الأمر كله عن فتى مصري وسيم اسمه شهاب، قابلته صدفة في خان الخليلي، شربنا على مقهى الفيشاوي، تكلمنا عن أشياء كثيرة وفي وسط الكلام عرفت أنه هارب من المنزل وطلب مني أن يبيت ليلة معي فوافقت، وفي الصباح ترك المنزل وترك لي رسالة مضمونها أنه سيضطر للذهاب لسبب ما.

مرت ثوان وماتيلدا تقرأ الرسالة وكلوديا تتمنى أن يمر الوقت سريعًا كي تأتي بالرد المطمئن.. وبعد ثوان ردت ماتيلدا:

- في الحقيقة هذا أمر غريب، ولكن أظن أن عليك نسيانه كي لا تسوء رحلتك.
- لا يمكنني، لا يحدث كل يوم أن يأتيك شخص فيبيت معك ثم يهرب بطريقة غريبة.
- معكِ حق، ولكن عزيزتي ما بيديك الجميلتين حيلة.

ابتسمت كلوديا ابتسامة خجولة وردت:

- أظن ذلك.. فلنغير الموضوع، ما هي أخبارك؟
- أنا جيدة، سوف نذهب أنا وعائلتي لقضاء رحلة قصيرة في النمسا، ولكني اشتقت إليك.
- وأنا أيضا صدقيني، أنا أيضا اشتقت لك جدًا، بضعة أيام وسأعود لألقاكِ.

تكلمتا في عدة مواضيع منها السياسية وكرة القدم لعبة ماتيلدا المفضلة والاستعداد للدخول في المدارس التي ستبدأ قريبًا جدا حتى وصل الأتوبيس أمام فندق المحروسة واستأذنت كلوديا من ماتيلدا مع وعدها أنها ستكلمها قريبا جدًا.. فتح والدها حسابًا عند الدخول.. قالت والدتها:

- أهلا يا إسكندرية.

دخل والدها مع والدتها لرؤية الطلة الجميلة على البحر من الشرفة، وتجولت كلوديا وأخوها بيتر في النزل، كانت الغرفة الرئيسية دائرية وبها أريكة دائرية سوداء عليها بعض النمارق البيضاء وطاولة خشبية وكرسيان لونهما أبيض.. دخلت كلوديا إلى غرفتها، سرير أحمر اللون وسجادة شرقية ومكتب بكرسيه، وترى من النافذة بشرًا يتجولون على كورنيش البحر، وشاهد بيتر غرفته سريعًا ثم ذهب إلى غرفة كلوديا وقرع الباب فقالت أخته:

- ادخل.

فدخل:

- أهلا.

لم ترد، كانت تستمتع بمشهد البحر.

- أريد أن أتكلم معك.

لم ترد فجلس على حافة سريرها وقال:

- من هو هذا الشاب حقيقة؟

أدارت الكرسي لكي تكون في مقابلته، لم يبدُ عليها أي انفعال، كانت تتوقع سؤالاً مثل هذا:

- كنت أتوقع أن تسأل.. ولكن أنا أيضا لا أعرف ولا يهم، فكما قالت والدتنا وكما قالت ماتيلدا لي يجب علينا نسيانه.

- ماتيلدا؟ هل أخبرتِ ماتيلدا؟

- نعم أخبرتها ونحن في الباص.
- لا تخفين أي شيء عن تلك الفتاة.
- مثل ما أنت لا تخفي شيئًا عن مونيكا.
- هل تظنين أننا يمكننا نسيانه؟
- يجب علينا.. ما باليد حيلة، هل سنجلس مجتمعين ونفكر يا ترى لماذا هرب ونبحث عنه في كل مكان لنسأله ماذا حدث؟ إن كل شيء حول هذا الفتى مريب وصعب نسيانه، ولكننا سننساه مع الوقت.
- ماذا أحسستِ عندما رأيتِه في القاهرة؟
- أحسست أنه شاب عادي يريد الكلام معي لأني سائحة.. دعك من هذا، ما أخبار مونيكا؟

ضحك بيتر وقال:

- هي بخير، كنت أكلمها في الباص أيضا، تقول إنها تشتاق إليّ وأنا كذلك أحترق شوقا كي أراها.

نظرت كلوديا له بحنان وقامت من على الكرسي كي تجلس بجانبه على السرير ونظر لها هو أيضًا بحنان.. احتضنته بقوة فجأة وضمها هو بذراعيه وقال لها:

- أحبك.
- وأنا أيضًا أحبك.. وأحب ماتيلدا.

وبدأت في البكاء.

ازداد بكاؤها وأصبح نحيبًا.. ضمها بيتر إلى صدره ومسح على شعرها.. قالت وهي تنتحب:

- أنا أريد النوم، هل يمكنك أن تستلقي بجانبي حتى أخلد للنوم؟
- بالطبع يا صغيرتي.

استلقت كلوديا على جانبها الأيمن وضمت ركبتها إلى صدرها وبيتر استلقى، وفي أقل من دقيقة كان الاثنان يتناولان العشاء مع الملائكة.

❊ ❊ ❊

٩

تذكر شهاب أنه يفصله عن فعلته تلك يومان بالأكثر، فقرر أن يلقي نظرة على شارع النبي دانيال الذي يقال عليه شارع الكتب ليتصفح عناوين الكتب فقط.. وصل إلى الشارع الممتد في أوله منشأة عسكرية، في أول الشارع كشكان للكتب يتبعهما بائعو ملابس داخلية وأفلام قرصنة.. وبعد حوالي ١٠ أمتار تكون أكشاك الكتب على اليمين ومركز الثقافة الفرنسي ومحلات الملابس على اليسار، وفي نهاية الشارع يوجد قصر ثقافة الإبداع.. مر بعينيه على عناوين الكتب، لاحظ أنها نفس العناوين منذ شهر تقريبًا، لا يوجد جديد في عالم النشر، وعند كل كشك يستوقفه صاحبه قائلا:

- بتدور على حاجة يا باشا؟

فينفي هو هازًا رأسه.. جذبه كتاب سارتر "الوجود والعدم" ولكن لم يجد فائدة ترجى من شرائه.. وفي نهاية الشارع تذكر أن قصر الثقافة بجانبه منذ زمن طويل وهو لم يدخله سواء لحضور معارض أو ندوات أو حتى القراءة في المكتبة.. تأكد أن الكارنيه بحوزته وتوجه للقصر.. قصر أبيض كبير الحجم مدخله ضخم ومن طابق واحد فقط رغم حجمه الهائل، وهذا بسبب الارتفاع المبالغ فيه بين السقف والأرض، عند الدخول توجد لوحتان يعلق

عليهما ورق إعلانات للورش والمعارض والحفلات والندوات وكل شيء، اطلع عليها ثم صعد إلى المكتبة.. تنقسم لثلاث طاولات طويلة يحد بينها رفان من الكتب المقسمة إلى "أدب عربي، أدب روسي، تاريخ وعلوم سياسية وغيرها" كتب اسمه ووضع حقيبته المثقلة بالأمتعة في دولاب الأمانات وجلس على كرسي في الطاولة الوسطى وبدأ في كتابة مذكراته.. لاحظ أن الدفتر على شفير الانتهاء وهو الدفتر السابع أو الثامن منذ بداية كتابته للمذكرات.. جلس ساعة أو ساعة ونصف وهو يكتب، عندما انتهى من الكتابة كان الدفتر قد انتهى ولكن مازال يريد أن يوجه رسالة لهذا الكوكب قبل أن يغادره.

ترك القصر وتوجه إلى البحر وجهته الأولى والأخيرة.. كان على شاطئ "عبد اللطيف أبوهيف"، الساعة الآن تقريبًا الحادية عشرة، البحر في هذا الوقت هادئ وساكن والشاطئ أيضا خالٍ لا وجود لعائلات ولا لأشخاص فرادى.. وضع حقيبته كوسادة واستكان للنوم.

يسير شهاب على كورنيش البحر بدون وجهة أو هدف حتى يرى صيادًا أصلع سمينًا يرتدي ملابس قديمة ومهترئة، أراد شهاب أن يحدثه وشعر أنه يعرفه منذ فترة بعيدة.. فتقدم إليه وجلس بجواره، نظر له الصياد بابتسامة: عامل إيه؟

أمسك شهاب بصخرة صغيرة كانت بجانبه ورماها في الماء، ارتدت عدة مرات وقال: والله حزين شوية، حاسس إني لوحدي مفيش حد بيحبني، لا عائلتي ولا فيه حد صاحبي ولا البت إلى حبتها ردت لي الحب، مش عارف أعمل ايه أنا زهقت يا عم والله.

- لأ، إنت عارف انت هتعمل ايه.
- اه بس.. بس أنا هروح فين؟

نظر له متعجبًا وقال:

- النار.

انتاب الرعب شهاب بالكامل، تلك هي الإجابة التي يعلمها ولكن لا يريد سماعها، كان الهلع جليًا على نظراته التي تتابع بين الصياد والبحر.. أراد الصياد أن يتكلم ولكن يبدو أن سمكة ما علقت في الصنارة وهمت تشدها بمقاومة هينة لم تحتج من الصياد سوى سحبة واحدة حتى تترك المياه، وارتطمت بالبر جانب الصياد وأخذت تتلوى يمينا ويسارًا وتضرب الأرض بجنون من يتعلق بآخر أمل في الحياة، كانت سمكة صغيرة من نوع مرجان، سعد الصياد بصيده واستبشر باستفتاحه خيرًا، ألقى السمكة في صندوق خشبي يدوي الصنع وكانت هي أول الزائرين له، كان شهاب يتابع هذه السمكة ولكن لم تكن تشغل باله كثيرًا، ولكن كل ما يشغله ويعتمر تفكيره الآن هو هذا المصير الذي ينتظره، لا يستطيع البقاء مع الأحياء أكثر من هذا، والده ووالدته، روان وطفولته وانطوائيته،

لن أتحمل يومًا آخر في هذا العذاب، ولكن أأهرب من عذاب لعذاب ألعن منه؟ أفزعه مصيره الذي حدده أو لم يحدده، لم يخفِ على الصياد فطمأنه الصياد بحنان أب افتقده من زمن، وضع يده على كتفه وقال برأفة حقيقية:

- ماتزعلش ماتخافش أنا هاكون هناك، كلنا هنكون هناك.

أنهى جملته العاطفية بابتسامة صافية، ورغم وقوع معظم أسنانه واصفرار بل اسوداد الباقي منها، فتلك الابتسامة من أروع ما رأى شهاب، شعر بطيبة هذا الصياد تخترق قلبه.. إذا كان الجحيم مع هذا الشخص فحبذا جهنم.. أراد أن يكمل المحادثة معه وأن يذوب في حضنه ويتلو له ضعفه وقلة حيلته، ولكن ليس هنا، ليس في هذا العالم، مهمتي في هذا العالم انتهت.. قام من جانب الصياد ونظراته تؤكد أنه سيراه مرة أخرى قريبًا وأكمل مسيرته على الكورنيش.

يشعر أن كل الأعين تنظر إليه وتتعمد استفزازه، شعر أن كل الضحكات هي سخرية منه.. ازداد كرها على كرهه، حتى روان شعر أنه يمقتها، بل إنه يمقتها من البداية، إنه كان يحب الحب، يحب أن يحب، وما روان إلا فتاة جميلة ذات وجه طفولي وكم هو يكره الأطفال.. يتمنى أن يرى هذا العالم وهو يهلك، إنه هالك لا محالة ولكنه يريد أن يرى ذلك بعينيه، نظرات الهلع والبكاء بحرقة من سكان هذا الكوكب ستستعده للغاية، بدأ يفكر في أسهل طريقة

للانتحار، أيقتل نفسه بمسدس؟ ولكن أين له بهذا؟ أيقتل نفسه بقطار؟ لا.. القطار أيضا بعيد ولا يعرف أنواع السموم.. قطع حبل أفكاره فتاة بشعر ذهبي حريري طويل ليست بطويلة ولا بقصيرة ترتدي بنطالاً أزرق ضيقًا وقميصًا أحمر اللون ضيقًا كذلك، تثني كمه إلى الكوعين لتبدي يدين ناعمتين رقيقتين، وفي يدها اليسري أساور كثيرة ملونة.. تسمر شهاب مكانه وتأمل فيها وهي تمشي.. ملاك وشيطان، رقيقة وقاسية، نار وماء، جميع المتناقضات بداخلها، مد شهاب يده وأسرع كي يلحقها:

- انتِ.. انتِ.. آنسة.

اقترب منها وهي لا ترد..

- هذا جنون هذا جنون.

قالها لنفسه وهو يقترب ويضع يده على كتف الفتاة الشقراء، فالتفتت هي فجأة وأحاطت عنقه بذراعيها وعبثت في شعره الأسود وتمسحت به بجسدها.. هذا آخر ما كان يتوقعه.. كان يتوقع صفعة على خده.. ضربة تحت الحزام.. تصرخ وتلم الشارع.. ولكن هذا كثير، عقلي الصغير لا يحتمل.. همست في أذنه:

- أنا بحبك أوي.. كوبري استانلي الساعة ٢ كلنا هنكون هناك.. روح انت بس وهنعيش مع بعض للأبد.

صوت أنفاسها الحار في أذنه وجسدها الملتصق فيه يجعل الصورة ضبابية.. تلك أول مرة تقترب منه فتاة هكذا، تلك أول مرة يقترب

من آدمي هكذا.. أفلت عنقه لا يدري بماذا ينبغي أن يشعر.. يسعد لأنها تحبه، يثار لأنها التصقت به، يتعجب لأن ما فعلته هو عين الجنون.. وعلى حين غرة ألصقت شفتيها بشفتيه وكأن العالم بكل ما فيه.. ماؤه وأشخاصه وأصواته وأرضه.. تلاشى ولم يبقَ غير تلك الشفتين اللتين تداعبان شفتيه.. لم يتحرك، أسلم لها شفتيه كي تأكلهما بحرفية جنونية.. أطلقت شفتيه وابتسمت له بخبث وتراجعت للخلف وهي تنظر له.

استيقظ شهاب بين رمال شاطئ أبي هيف الخالي من البشر.. عيناه حمراوان وطبعت الشنطة آثارها على وجهه، يبدو أنه نائم منذ فترة طويلة.. نظر في المكان حوله وحزن بشدة عندما أدرك أنه كان حلمًا.. حلم عاش لتحقيقه، أول مرة يدرك أن الأحلام السعيدة قد تكون أسوأ من الكوابيس.. كوبري استانلي الساعة ٢.. هنعيش مع بعض للأبد.. ماتخافش كلنا هنكون هناك.

سوف أقتل نفسي اليوم من على كوبري استانلي في الساعة الثانية، سأودع العالم بكل ما فيه.. وسأحتفل للأبد مع روان حبيبتي والصياد الطيب..

قام شهاب من على الشاطئ متوجها إلى الأبدية الهانئة وهو يخطو آخر خطواته في هذا العالم.

١٠

استيقظت كلوديا وكانت تضع رأسها على صدر أخيها المستلقي على ظهره.. تقلبت على جانبها الآخر وأحست بنشاط ورغبة في التجول.. مرت من فوق أخيها.. كانت الساعة الواحدة ظهرًا.. جلست على مكتبها وشرعت في وضع المكياج ثم جاء صوت أخيها:

- صباح الخير يا عسلي.

نظرت له في المرآة:

- صباح الخير.

سألها وهو يفرد جسده:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- لا أعلم إلى أي مكان، أريد فقط التجول في البلدة، أشعر بحماس ونشاط.

- هل يمكنني التجول معكِ؟

نظرت له بترحيب وقالت:

- بالطبع.

وعادت لتصفف شعرها.. قال وهو ينهض من السرير:

- حسنا سأذهب لأخبر والدينا وأجهز نفسي.

أنهت تصفيف شعرها وانتقت ملابسها وخرجت مع أخيها.. سأل أخوها:

- هل لديك أي فكرة عن وجهتنا؟

- لا.. يمكننا المشي بجانب البحر حتى نتعب ونرجع كي نغفو.

-

❊ ❊ ❊

غير شهاب ملابسه بملابس أفضل، لا يريد أن يبدو كمتسول أو غير نظيف لكي يستطيع إيقاف تاكسي سريعًا.. فلقد أخبره شخص أوقفه منذ قليل لكي يسأله عن الساعة أن الساعة الآن الواحدة ظهرًا، ولا يمكنه المشي حتى كوبري استانلي في ساعة واحدة.. ألقى ملابسه على الأرض مع شنطته وكل ما هرب به من المنزل إلا دفتر المذكرات والرسالة التي كتبها.. أوقف تاكسي وركب فيه:

- استانلي يسطا؟

- إن شاء الله.

الطريق كان مزدحمًا وهذا طبيعي في مثل هذا الوقت، وصوت أبواق السيارات وبكاء الأطفال ورائحة عوادم السيارات ومنظر الأشخاص العابسين الغاضبين وشعور الشمس المحرقة زاده يقينا أن هذه الأرض في غاية القذارة.. كل دقيقة تقريبا ينظر إلى ساعته وإلى الخارج كي يتأكد من عدم فوات الوقت.. وفي تمام الثانية وصل

شهاب إلى الكوبري وأعطى للسائق أجرته ونظر للكوبري في تعظيم ولهفة وفرح.. كوبري استانلي لا يتوقف نبضه أبدًا، دائمًا السيارات تمر ودائما هناك صايدون يدلون صنارتهم بحثا عن الرزق، وهو ملاذ رومانسي للحبّيبة من كل الأعمار والمفكرين العميقين.. هو أحد أهم بؤر الحياة في الإسكندرية.

فكر ما هي الخطوة التالية؟ هأنذا على كوبري استانلي.. سأرمي نفسي بالتأكيد، في كل كرسي تقريبًا كان يجلس صياد أو حبيب أو عميق، وحتى الكراسي الفارغة كان يحيط بها جمع من الشباب الذين يتحدثون معًا، لا مفر، الكوبري ممتلئ والساعة تخطت الثانية يجب أن أفعلها الآن.

وضع يده على السور بحزم، كان حازمًا بشكل لم يعهده من قبل، رفع جسده الصغير وفي يده اليسرى دفتر المذكرات والرسالة، وقف على قدميه واتزن.. اجتمع الناس بصمت حوله، هؤلاء الصيادون والفاسقون والمفكرون العميقون والمارة، تجمعوا تجمعًا صامتا حوله منتظرين أن يوضح لهم، ولكن من الغباء توضيح ما هو واضح.. ومن وسط المتفرجين كانت كلوديا وأخوها ينظران بعينين مفزوعتين، قالت:

- هذا هو، هذا هو شهاب الذي حدثتكم عنه.

قال مندهشا:

- هذا هو حقا؟

كانت سعادة شهاب أزيد مع عدد المراقبين المترقبين والأعين شبه الخائفة المنتظرة.. تكلمت إحدى الشابات بحدة وخوف:

- انت هتعمل ايه يا ابني؟

فأضافت أخرى:

- حرام يا بني متعملش في نفسك كده.

وكثرت الكلمات والنصائح.. الجميع خائف.. هذه أفضل لحظات شهاب.. الجميع خائف بسببي ومتضايق بسببي، وهناك من يبكي بسببي.. كم أتمنى أن يكون لي الآلاف من الأرواح كي أقتل نفسي في كل مرة، فقط لأرى هذا الحزن وهذا القلق.. كلوديا تراقب هي أيضا وتستمع لأصوات الناس المفزوعة والناصحة.. لم تفهم اللغة بالتأكيد ولكن المغزى واضح.. حسنا لقد فاض الكيل.. تقدمت كلوديا ودفعت فتاة كانت أمامها، رآها شهاب وهي تبكي.. قالت له:

- أرجوك أرجوك لا تفعل يا شهاب، أنت فتى رائع ووسيم وغامض بعض الشيء.

أتى بيتر ليقف بجانبها وقال وهو يحبس دموعه:

- لا تفعل، الحياة جميلة، انظر حولك وأنصت جيدًا، زقزقة العصافير، حفيف الأوراق، كل أصوات العالم هي كسمفونية متقنة.

أجاب شهاب بغضب:

- لقد استمعت جيدًا أفضل منك ومن كلوديا ومنكم جميعًا، ولهذا فقط سأنتحر.

سكت الجميع وتابعوا المحادثة الإنجليزية تلك، سألوا أنفسهم أيمكن أن يكون أجنبيًا وأتى لكي ينتحر هنا؟ ألعنة الكابة طالت حتى الزائرين إلى مصر؟ قالت كلوديا وصوتها متقطع من البكاء:

- لماذا ستفعل هذا؟ لماذا علقتني بك وأنت ستنتحر؟ لماذا هربت ولم تقل لي ما في بالك؟ كنت سأساعدك.

بدأ شهاب في البكاء وكذلك الجميع تقريبًا.

- لا لم تكوني ستساعدينني، كنت ستخذلينني أو أنا سأخذلك، كان أحدنا سيجرح في النهاية.
- هل رأيت المستقبل؟
- لا، ولكن رأيت الماضي وتعلمت منه.
- ما هو ماضيك الذي يجعلك تتخلى عن الحياة؟
- أنا آسف، أنا ذاهب لمكان أفضل.

وترك ظهره يهوي إلى المياه، صرخ الجميع وكاد قلب كلوديا وبيتر يتوقف، سينتهي كل شيء، سأغادر هذا العالم القاسي غير المبالي، هذه هي طبيعته أن يكون غير مبالٍ، سأرتطم الآن بالماء ويتوقف قلبي عن النبض وخلاياي عن التكاثر وبكل سهولة لن أكون موجودًا، لن يبكي أحد عليّ، ربما يومًا أو يومين على الأكثر وسينسى أمري.

- لاااااااااا لاااااااا

وصوت ارتطام جسد شهاب بالمياه يصم الآذان، غاص في البحر وانتبه السابحون والمنسجمون على الشاطئ لهذا الصوت، سبحت مجموعة من الشباب إلى جثة شهاب الطافية، أمسكت كلوديا بالدفتر والرسالة واحتضنتها وهي تبكي.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، جن جنون بعض النساء وأخذن يصرخن ويبكين، حالة من الخرف والذهول أصابت الكثيرين.. سحب الشباب جثة شهاب إلى البر.. لا نبض لا نفس لقد رحل.. طلب أحد الشباب الإسعاف لتاتي في الحال.

خلا البحر من المستمتعين به وارتمى الأطفال في حضن أمهاتهم.. وصلت الإسعاف وعربات الشرطة.. حاولت كلوديا أن تلمس جثة شهاب أو أن تراها ولكنهم أغلقوا المكان.. أعطت الدفتر والرسالة لضابط شرطة.. وظهر الصحفيون والمراسلون من حيث لا يعلم أحد، التقطت الصور وحوارات مع شهود عيان ولقاءات وفيديوهات للقنوات، حملت جثة شهاب إلى المستشفى الأميري وانتشر الخبر كالنار في الهشيم، نشر الشهود فيديوهاتهم على السوشيال ميديا والصحفيون والمراسلون، امتلأت القنوات بخبر معنون ب "انتحار فتى مراهق".

قالت كلوديا:

- لقد قتل نفسه أمام عيني.

لم يرد بيتر، لا يدري بمَ يرد، الموقف لا يحتاج ما يقال.. بعد قليل عاد الجميع إلى منازلهم حتى بيتر وكلوديا، وفي خلال ساعات كان حديث الشارع وحديث التلفاز هو "انتحار فتى مراهق".

❊ ❊ ❊

١١

صاحت روان وهي تدخل الشقة:

- ماما بابا

تعلم جيدا أنه لا أحد في المنزل ولكن لا بد من أخذ الحذر.. ألقت نظرة سريعة على جميع الغرف وتأكدت أن لا أحد في المنزل.. إحساس بالراحة والحرية لخلو المنزل.. خلعت ملابس المدرسة كلها وبقيت بالملابس الداخلية، جلست على الكنبة أمام التلفاز العتيق وشغلته على صورة لشخص تعرفه جيدًا:

- ايه ده؟

وبعدها يأتي إعلامي ويتكلم:

- انتحار فتى مراهق، هو ده اسم الخبر إلى اتنشر عن ولد اسمه شهاب محمد عبد الله من الإسكندرية عمره ١٥ سنة نط من فوق كوبري استانلي.

ويظهر فيديو لشهاب وهو يقفز من على كوبري استانلي...

أحست بثقل في قلبها وفي الهواء حولها، وضعت يدها على فمها وهزت رأسها يمينا ويسارًا.. غيرت القناة لترى شيخًا يصيح في الكاميرا:

- هذا الفتى كافر وكل من يتعاطف معه كافر.

وفي أخرى مذيعة تعب مصمم مكياجها كي تبدو بعيدة عن الدمامة:

- مش عارفة بيحصل إيه ولد لسه ماشافش دنيا.

فأغلقت التلفاز:

- أنا السبب.. أنا السبب.

أمسكت بصحيفة بجانبها وقرأت.. "انتحار فتى مراهق أمام مرأى من الناس، التفاصيل في الصفحة ٥".. وفي أخرى "أصغر منتحر في مصر يشعل الرأي العام" لم تتسع عيناها لأكثر من هذا فبكت.

- لا أنا مش السبب، هما السبب، هما إلى ربوني على كده ربوني على عيب وغلط وعمري ما سألت ليه، لو سألت ماكانش زمانه انتحر.

أحست كأن البيت الضيق في الأصل يضيق أكثر وأكثر والأكسجين انسحب من الغرفة، السعادة تتلاشى، الاطمئنان يتلاشى، الراحة تتلاشى، فقط الحزن هو من يبقى والدموع على خدها هي من تبقى.. قررت أن تفعل ما لم تفعله طيلة حياتها، ستخرج من المنزل بدون إذن والديها.. هذا الإذن التي طالما عاشت مقيدة به، لم تشعر أبدًا بحرية الاختيار أو حتى فكرت أن تكون حرة.. ارتدت ملابسها ومسحت دموعها والحجاب مازال على الأريكة.. نظرت إليه نظرة تحمل لماذا وماذا ومتى وأين وكيف.. وماذا لو قررت أن تزيد المغامرة بأن تنزل من المنزل لأول مرة بدون حجاب؟ أخذت ثلاثمئة

جنيه التي كانت تجمعها منذ شهرين أو ثلاثة.. فخرجت من المنزل وهي تدرك عقوبة ما تفعله.. نظرت للأرض وتوارت خلف السيارات المركونة حتى لا يراها أحد من معارف والدها.. خرجت من المنطقة بسلام وركبت ترام جليم بجانب اثنين شرعا في الكلام:

- شفت الواد اللي نط من فوق الكوبري؟
- آه دا أنا زعلت عليه أوي.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- ده ضعف إيمان على فكرة.
- فعلا لو كان أهله عرّفوه ربنا ماكانش عمل كده.
- بيقولك كلموا زمايله قالوا إنه كان بيحب واحدة وماحبتهوش وأهله مطلقين، يعني كره الدنيا من وهو صغير.

لم تستطع روان إكمال التنصت للمحادثة.. فوقفت أمام باب الترام منتظرة المحطة القادمة ووضعت يدها على رأسها، ولأول مرة تلمس شعرًا لا قماشًا، تحسست شعرها وأحست ببعض الذنب مما فعلته، ربما لأنه أول يوم بدون حجاب أو أنها فعلا كانت تحب الحجاب وأخطأت في خلعه.. نزلت في المحطة التالية وتحولت في شارع جانبي، لا تنوي إطلاقا العودة للبيت الآن.. اتجهت إلى أحد المطاعم على الطراز الغربي.. تجربة جديدة بالنسبة لها أن تجرب مطعمًا غاليًا كهذا، ولكنها تنحدر للهاوية بكل حال، فعندما ترجع

للمنزل مرة أخرى لا يعلم أحد ما المصيبة التي يمكن أن تحدث.. كان ديكور المطعم صورًا لكؤوس خمر وهامبرجر وأشخاص أوربيين يأكلون، وهناك رجلان يعدان المشروبات أمام طاولة حمراء ممتدة بطول المطبخ، أمامها كراسي دائرية بدون ظهر متوزعة بجانب بعضها مع فرق صغير بين كل واحدة وأخرى، وطاولات أمامها كراسٍ حمراء مريحة وكبيرة، كل موضع أكل به مقعدان يتسعان لشخصين، وهناك مقاعد مشغولة بعوائل أو جماعات أصدقاء أو شخص وحيد يأكل طعامه في صمت.. كان المكان مبهرًا بالنسبة لها، حاولت أن تخفي علامات الانبهار من المكان ولكنه خرافي كما تراه، جلست في أحد الكراسي الدائرية وقرأت المنيو، لم تسعفها ثقافتها الإنجليزية في الفهم فسألها النادل الذي يرتدي قميصًا أحمر وأصفر عليه بطاقة مكتوب عليها اسمه بالإنجليزية بابتسامة ودود:

- أومرني يافندم.

ارتبكت من السؤال وطريقته اللطيفة، كيف ستجيب وهي لم تستطع قراءة القائمة؟

- جيبلي مشروب على ذوقك كده.

- من عنيا يا فندم.

واختفى من أمامها.. تتمنى أن يكون ذوقه رخيصًا على الأقل أرخص من ٢٠٠ جنيه.. وفي التلفاز كان الخبر الذي ينتشر في كل مكان وإعلامي هو نفس الإعلامي الذي استقبلت منه الخبر في بادئ الأمر:

- وسألنا زمايله في الفصل قالوا إنه لا كان بيكلم حد ولا حد كان بيكلمه، كان انطوائي جدا وبيقولوا إنه قبل ما يعمل اللي عمله كان بيحب واحدة معاه في نفس الدرس وأول ما قالها إنه بيحبها ردت عليه رد قاسي وكمان أبوه وأمه مطلقين من أول ما اتولد.. ابوه محمد عبد الله أشرف عمره ٤٧ سنة وأمه سوسن إبراهيم ٤٢..

جاء النادل وفي يده مشروب مظهره لا يقاوم.

- اتفضلي يا فندم ده flat white

هذا رائع جدًا بالنسبة لها أو أنها لم تدخل مطعمًا بهذا الشكل فهي بدون خبرة، ولكن اصطنعت هيئة أنها مجربة له من قبل، ذاقت رشفة من الكوب ولعابها غطى كل فمها وكان طعمه مثل شكله بل أفضل، تمنت لو بإمكانها أن تشربه كله مرة واحدة ولكن إن فعلت ستخرج من المطعم سريعًا وهي تريد أن تعيش اللحظة، جلس شاب بجانبها بشوش الوجه عفّ اللحية بشكل مهندم سمين بعض الشيء، وطلب mocha corto وبالطبع لم تفهم روان ما قال.. نظرت إليه وشعرت برغبة جامحة في كسر قاعدة أخرى تربت عليها من طفولتها ودائما عوقبت وعاقبت نفسها إن فكرت في كسرها، رشفت مرة أخرى من الكوب.. ولكن كيف يمكن أن أبدأ؟ عن ماذا أتكلم؟ لابد أن تكون المحادثة ذات مغزى على الأقل.. يمكن أن أتحدث عن العصير أو المطعم.. لا أنا حتى لم أستطع قراءة

القائمة، بحثت حولها عن أي مصدر إلهام، طاولات.. ديكور.. شارع.. أشخاص.. تلفاز.. أخبار.

- إيه رأيك في اللي بيحصل في الدنيا؟
- إيه؟

ازدادت قلقًا على قلق ولكن لا بد أن تظهر كواثقة من نفسها.. أشارت إلى التلفاز:

- اللي بيحصل في الدنيا.
- نظر إلى التلفاز وقال ضاحكًا:
- عيل انتحر بقى خلاص اللي بيحصل في الدنيا؟

شعرت بالإحراج من قولها المبالغ وسرعان ما لملمت الوضع بضحكة وقالت:

- معلش يا سيدي، اللي بيحصل في مصر، الواد اللي انتحر.

شرب رشفة من كوبه وقال:

- والله أنا شايف إن الموضوع مايستهلش كل ده.
- بجد؟ ليه؟
- شخص انتحر خلاص الله يرحمه.
- والله عندك حق.. بس أنا شايفة إن سبب اهتمام الناس بيه هو سنه الصغير.
- فعلا حاجة غريبة إن عيل في السن ده ينتحر.

- تفتكر ليه انتحر؟
- والله بيقولك إنه كان بيحب واحدة مش بتحبه وأهله مطلقين أكيد لازم ينتحر.
- تفتكر كان بيحب الواحدة دي بجد؟ أكيد طبعًا مادام ساب الحياة كلها عشان هي سابته يبقى أكيد بيحبها.

دمرت هذه الجملة آخر أوصال رباطة الجأش بداخلها:

- تفتكر هي سابته ليه؟
- أكيد واحدة مريضة نفسيًا.

مريضة! شعرت بالإهانة من هذه الكلمة، ولكن هي ترى نفسها مريضة:

- طيب مش ممكن تكون ضحية؟
- ضحية إيه؟

قالت بنبرة عدائية كأنها تريد التشاجر معه:

- ضحية مجتمع غبي فاشل بيعامل المرأة على إنها حيوان مش من حقها تحقق مستقبلها، مجتمع مش فاهم أي حاجة في أي حاجة غير إن البنت ماينفعش تكلم ولاد.
- إهدي بس واحدة واحدة.. اتنينRistretto لو سمحت.
- أنا زهقت من الأسامي دي.
- إيه؟
- ولا حاجة.

- انت تبع منظمات النشاط النسوي مش كده؟
- إيه؟
- ولا حاجة.

ضحكت ضحكةً خجولة معلنة أن هناك أنثى بداخلها كبتت وأغلق عليها سنين طويلة ما إن رأت شعاع نور حتى تفجرت.

- اسمك إيه؟
- روان، وانت؟
- عصام.
- تشرفنا.
- منين يا روان؟
- السيوف.
- أنا من كرموز.
- أتى النادل بعصيرين Ristretto
- تتغدي؟
- فاجأتها الكلمة.
- أتغدى؟؟
- أعزمك، إيه رأيك؟

لم تعلم ما هو العمل، أتصفعه على خده صفعة تجعله ينسى اسمه أم توافق؟ الصورة على التلفاز تذكرها بالشخص الذي كانت هي سببًا في معاناته، فقالت بخجل مصطنع:

- مش عايزة أضايقك.
- لا يا ستي لا مضايقاني ولا حاجة، ده حتى الكلام معاكي ممتع أوي.
- بجد؟
- أيوه هو أنا أول واحد أقولك كده؟
- انت أول واحد أكلمه أصلاً.

ضحك الاثنان وطلب عصام من النادل Shiitake Mushroom Combo.. وعلى هذه الطاولة وكانت أقرب طاولة للباب جلس عصام وأمامه روان متوترة للغاية وسعيدة للغاية، تشعر أنها مجنونة أو أنها عادت إلى عقلها.. لم تكلم هذا الشاب لأنها أحبته أو حتى تريد مصادقته، كلمته فقط كي تكسر آخر قاعدة عُلّمت لها لأنها لا تريد أن تكمل حياتها هكذا، لأنها عولجت بتلك الصدمة التي كانت تنتظرها وتحن إليها، وها هي أتت وأيقظتها.. رن هاتفها الصغير القديم، كان والدها، أحرجت أن تخرجه أمامه فأنزلته لأسفل.

- ردي لو عايزة.
- لا لا حد مش مهم.

وصل الطلب إلى الطاولة ومعه شوكة وسكين وملعقة.. كان الطبق يتكون من قطعة برجر لحم بقري مشوي، جبنة شيدر، مشروم سوتيه ومايونيز.

احتارت روان ما هي الطريقة المثلى التي يجب أن تأكل بها، فقررت أن تنتظر حتى يبدأ عصام في أكل هذا الطبق الشهي فقلدته تمامًا.. كان هذا أروع ما أكلته في حياتها، طعم كأنه من الجنة إن أكلت هذا الطبق كل يوم في كل الوجبات فلن تمل منه.

- عجبتك الوجبة؟
- جدًا، دي من أكلاتي المفضلة.
- وأنا كمان باحبها جدًا، بتحبي أكلات إيه تاني؟

في الحقيقة تحب الملوخية والبامية الويكا وأيضا اللحم في عيد الأضحى، أجابت بتعميم:

- أنا باحب المطبخ الإيطالي.
- آه بس ده مطبخ أمريكي.
- ما أنا باحب المطبخ الإيطالي كله، ومن المطبخ الأمريكي باحب الوجبة دي بس.

تناولا وجبتهما اللذيذة وتكلما حتى غروب الشمس.

- كان يوم جميل جدًا يا روان.. انت بنت جميلة ودمك خفيف.

هذه مغازلة ومغازلة لطيفة أيضًا، احمرت خجلا وقالت:

- شكرًا جدًا، وانت كمان جميل ودمك خفيف.

دفع عصام الحساب وأوقف لها تاكسي رغم أنها حاولت إقناعه بأن ما فعله في المطعم كافٍ جدًا وأنها يمكن أن تعود للمنزل

بطريقتها.. أول مرة تركب تاكسي وأول مرة تخرج من المنزل بدون إذن، وأول مرة بدون حجاب، أول مرة تكلم ولدًا وأول مرة تأكل في مطعم فاخر وبدون أن تدفع شيئًا، أول مرة تشعر أنها حية وأن العالم من حولها ليس كما كانت تظن، شعرت أنها حرة كما لم تكن من قبل.. لا تعرف ما هي ردة فعل أهلها ولكن والدها ووالدتها اتصلا بها ما يقرب من المائة مرة، ولأن الأشياء الحلوة لا تدوم فهي تدرك جيدًا أن هناك مصيرًا أسود ينتظرها.

❊ ❊ ❊

١٢

- ابني ما ماتش.
- خلاص يا حاجة، إنا لله وإنا إليه راجعون.

منزل شهاب تحول إلى عزاء بدون معزين.. ١٢ ساعة وعينا أمه لم تكفا عن البكاء.. احتضن نور والدته مواسيًا لها ولكنها دفعته وقالت وهي تضرب فخديها:

- أنا مش عايزاك، أنا عايزة ابني، وديتوه فين يا كفرة حرام عليكم.

أكثر الأشخاص تماسكًا هو والده الذي دخل المنزل مع طليقته لأول مرة منذ أكثر من عقد.. فلم يبكِ إلا قليلا ولم يغضب أو بالأحرى كان يكتم هذا الحزن بداخله.. يصلي بكل خشوع بعد أن تقبل فكرة أن ابنه ليس معه الآن وأنه مع الله سبحانه وتعالى، ويعلم أن من أسماء الله الرحيم والغفور والقدير، وأنه مجيب الدعوات، فدعا ليلا ونهارًا منذ إذاعة الخبر حتى هذه اللحظة أن يرحمه الله ويغفر له فعلته، ويصلي لابنه ويتصدق له.. ونور يتصنع القوة والثبات فقط لكي يثبّت أمه ويواسيها ويحاول بكل جهد أن يداوي جراحها التي لا يعلم أحد غير الله متى يمكن أن تشفى.. ضرب

أحدهم الباب بعنف مرتين فقطع الأب صلاته وقالت الأم وهي تتجه إلى الباب فرحة:

- ابني.. ابني جه، قولتلكم إنه ماماتش محدش صدقني.

فتحت الباب ولم يكن ابنها بالطبع، فابنها الآن جثة مثلجة في المشرحة، رأت ضابطًا ضخمًا برتبة ملازم ومعه عسكريان يبدو أنهما من الصعيد، فاجأ المنظر أم شهاب، اقترب نور ووالده وتراجعت أم شهاب للخلف.. يقول الضابط:

- عائلة شهاب محمد عبد الله؟

فيرد نور:

- أيوه يا فندم أؤمرنا؟
- معانا مذكرة للتحقيق مع محمد عبد الله وسوسن أحمد ونور الدين محمد عبد الله.
- تحقيق ليه يا باشا؟
- لانتحار ابن حضرتك.

فتنفجر الأم في وجه الضابط:

- لأ مانتحرش، أنا ابني جايلي وهما خاطفينه.
- حضرتك اتكلمي عن المحضر.

نزل الثلاثة إلى البوكس أسفل المنزل وجميع الأعين معلقة عليهم.

- خير يا باشمهندس؟
- خير إن شاء الله.

لم يتكلبش أحد.. ظل الأب يدعو لابنه طيلة الطريق، لا يهم ما المصير الذي ينتظره رغم أنه يعلم أن الأمر لا يتعدى كونه تحقيقًا صغيرًا، ولكن حتى وإن كان الأمر فيه نوم في السجن فإنه لا يفعل شيئًا منذ خبر وفاة ابنه إلا الدعاء.. الأم تبكي وتصرخ بهستيرية وتهذي بكلمات لا تخرج إلا من عجوز خرفة.. التقط الصحفيون صورًا يمكنها أن تغطي غدًا صفحات الجرائد الأولى ويتحدث عنها أكبر الإعلاميين وتكون مصدرًا ملهمًا لمروجي الشائعات.. وضع الأم بخرفها وجنونها يحزن نور جدا، فلم يستطع إلا أن يبكي على حال أمه ويدعو الله أن تفيق من خرفها أو أن يكون كل هذا كابوسًا مروعًا ويستيقظ هو منه ليرى أخاه شهاب في مكانه يقرأ أو يستمع إلى الموسيقى، ووالدته في مكانها تنعي حظها أنها تزوجت رجلا كهذا.. يتمنى أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه.. وصلت العائلة إلى قسم المنتزه.. شبابيك سوداء في كل المبنى وسور طوبي يحيط بالقسم وعربات ترحيل وبوكسات أمام القسم وضباط شرطة وعساكر مسلحون وملثمون، الجو هادئ بشكل يبعث على الكآبة، نزلت العائلة من البوكس، ارتعد نور من حالة أمه والمكان، خاف أن يؤذوها، ولحسن الحظ كان الضباط متعاونين ولم يؤذوها، مازال الأب يدعو لابنه بدون كلل أو ملل.

أدخِلوا إلى غرفة سوداء مهملة عن عمد لإضفاء روح الرعب، طاولة سوداء ومصباح يصدر ضوءًا خافتًا يزيد الكآبة أكثر وأكثر..

ثلاثة كراسي بلاستيكية متجاورة وكرسي في الطرف الآخر.. جلس الثلاثة، سأل نور الذي تحول اهتمامه من والدته إلى هذا المكان الكئيب الذي أدخل فيه:

- تفتكر هيعملوا فينا إيه يا بابا؟

فقال الأب مطمئنا بحنان لم يعهده نور من قبل:

- ماتقلقش يا بني، تحقيق صغير وهيمشونا.

فوجئ نور بهذا الرد اللطيف.. دخل إلى الغرفة رجل في أواسط الثلاثينات يرتدي بدلة ميري:

- السلام عليكم.
- رد الجميع:
- وعليكم السلام.
- عاملين إيه؟

لم يرد أحد من التوتر.. أكمل الضابط ما يتضح أنه يحفظه ويكرره كل مرة:

- انا مش عايزكم تقلقوا، مافيش حاجة تدعو للقلق، هتكون شوية أسئلة هتجاوبوني عليها بصراحة.. أتمنى تكون بصراحة.

شعروا أنه يهددهم:

- واضح إنكم ولاد ناس ومحترمين، عشان كده عايز الإجابات الصريحة تطلع بسرعة.

- ابتسم ابتسامة لا تتماشى مع التهديد وجو التحقيق هذا:
- موافقين؟

لمي يأته رد فأكمل:

- نبتدي بنور محمد عبد الله أخو المرحوم، توصف علاقتك بأخوك بإيه؟

صمت نور لفترة كي يفكر في إجابة بين الحقيقة المطلقة والكذب البيّن.

- الصراحة يا باشا علاقتنا كانت زي أي اتنين اخوات، يعني ماكناش قريبين من بعض قوي ولا كنت أنا في وادي وهو في وادي.
- توصف أخوك بإيه؟
- بيحب الوِحدة وغامض، ماكانش بيقوللنا على أي حاجة، أفكاره أو رأيه أو حلمه، وكان بيحب يقعد لوحده مع كتاب أو سماعات يسمع موسيقى.
- حسيت بإيه لما سمعت الخبر؟
- اتفاجئت طبعًا وزعلت، حسيت إن في حاجة غلط، مش عارف هي إيه.
- لو أخوك كان عايش كنت هتعمل إيه؟
- هنا تدخلت الأم وقالت صارخة في وجه الضابط:

- لو كان عايش!! ما هو عايش يا أخويا، هما عيلة البنت بنت الكلب دي الأوساخ مش راضيين يطلعوه.

أشفق الأب عليها فحاول تهدئتها:

- خلاص يا ست الكل هدي نفسك وخدي نفَسك.
- لم يهدئها هذا بل زاد نيرانها اشتعالاً:
- أهدا إيه؟ ما انت أصلك معاهم، ومش عايز تفضحهم.

قال الضابط:

- يعني انت يا حاجة شايفة إن ابنك عايش؟
- طبعا عايش، بس في ناس خاطفينه، عائلة البنت السافلة ربنا ينتقم منهم.

لو كانت تلك حالة خطف لكان ذهب إلى منزل الـ(بنت السافلة) ولكن هذا انتحار، هناك فيديوهات وصور وشهود عيان وأيضًا هي لم توضح أي شيء عن شخصية تلك البنت السافلة:

- البت دي ماتعرفيش أي معلومات عنها؟ ساكنة فين؟ اسمها شكلها ايه؟

يبدو أنها استغربت السؤال أو شعرت أنه سؤال غير منطقي، فقالت بانفعال:

- معلومات إيه؟ باقولك خاطفاه.

نظر الظابط إلى نور مستفهمًا عن معنى ما تقوله تلك المرأة فأومأ له نور أنه أي نعم هي جنت وتاه عقلها.. قال الضابط:

- عسكري فتحي.

وعلى الفور دخل عسكري طويل شاربه كثيف ألقى تحية الانتباه:

- أمرك يا فندم.
- وصل المدام لعمك إبراهيم.

سألت الأم بسعادة:

- هتجيبولي ابني؟
- ايوه يا حاجة هيجيبوهلك.

أشارت لهم بالسلام:

- أنا رايحة لابني، مع السلامة.

سأل الضابط نور:

- بقالها قد إيه كده؟
- يوم واحد من ساعة ما شافت الخبر.

قلب نور يتقطع ويشعر بالحزن الشديد عندما يرى والدته هكذا.. توجه الظابط إلى الوالد:

- مين البنت دي يا شيخ؟
- ولا حد، دي بتخرف عافانا الله.

لم يرد الوالد أن يؤذيها ويتعبها بالتحقيقات، وبعد ما قالته الأم يمكن أن تنام يومًا أو يومين في الحجز، رغم أنه كان أول من نادى أنها خطفته، إلا أنه الآن يدري مدى سذاجة تلك الفكرة..

لم يستوعب نور لماذا لم يقل والده الحقيقة إنها روان ونحن نعلم هذا، ألم يقل من قبل إنها خطفته وجعلنا نصدقه؟ إذن لماذا يقول الآن إننا لا نعرفها؟ سأله الضابط:

- عايز تعقب بحاجة على كلام والدك؟

لم يوضع نور في موقف بمثل هذه الغرابة من قبل، فهو ما بين رأيين، رأي أبيه ورأي أبيه أيضًا، الذي قال هم خطفوه هو نفسه من يقول لا أدري من هم يا فندم.

- زي ما قال.

توجه إلى الوالد:

- حضرتك مهندس والشغل كان بياخد معظم وقتك وحتى في وقت فراغك بتقعد مع صحابك أو بتقرا في مكتبة، وفي يوم الجمعة بيكون عندك خطبة.. بتقعد مع ابنك إمتى وإزاي؟

أجاب بهدوء ورصانة:

- مابقعدش معاه، ماكانش عندي ضمير، ماكنتش عارف يعني إيه أب وإيه مهمتي.
- يعني بتقول إنك كنت مقصر معاه.
- جدًا جدًا.
- هل ده أثر في نفسيته؟

نظر للأرض وشعور الذنب مميت وقاسٍ، إنه حزين على سنين ضاعت وابنه لم يذق حنان الأب ولا طعم العائلة الموحدة، فقرر أن ينهي حياته بنفسه، وهو غاضب كذلك من نفسه، تلك النفس التي حفظت الدين عبادته ولم تفهم روحانياته.

- أثر جدًا يا باشا، هو ده السبب الرئيسي في انتحاره.
- السبب الرئيسي إزاي يعني؟
- يعني شهاب لو كان عايش وسط أب وأم حابين بعض قادرين يتواصلوا مع بعض ووسط من بيديلوا العطف والاهتمام ماكانش زمانه فكر في كده، وحتى لو كان فكر في كده كان زمانه هيقول لنا.
- حسيت بإيه بعد ما سمعت الخبر؟

صمت فترة ليبحث عن كلمات تصف ما أحس به:

- عارف لما القطر يكون مهجور وماحدش بيستخدمه ومركون وسط مطر وثلج وفجأة الربيع ييجي والثلج يسيح وتصلح القطر بس ميلاقيش حد يستخدمه.. هو ده بالظبط اللي حسيت بيه.. حسيت إن الأبوة جوايا صحيت وفاقت بس بعد إيه؟ بعد ما ابني مات.. حسيت إن في حاجات كتير كنت فاكر نفسي فاهمها وأنا ماعرفش أي حاجة عنها، أنا صحيت على موت ابني الله يرحمه.

- الله يرحمه.. شكرًا يا فندم تقدروا تتفضلوا.

شعروا بالراحة كأن حملا ثقيلاً ألقي عن كواهلهم، ولكن نور قال:

- ماما فين؟

أجاب الضابط:

- اسمعني يا نور، أنت كبير وهتفهم اللي هاقوله، ماما الخبر كان تقيل قوي عليها محتاجة شوية علاج نفسي وهترجعلك تاني.

أحس نور بانعدام الأمان لأن والدته لن تكون معه، شعر بأن الحمل الثقيل الذي ألقي من عليه جاء ما هو أضعافه:

- هترجعلنا إمتى؟
- أسبوع بأقصى حد.
- وضع الأب يديه على كتف نور وضمه إليه:
- تعالى يا ابني.

فخرج مع والده الذي فاجأه بطيبته وحنانه غير المعهودين.. لقد اعتاد على نظام معين في الحياة والآن تغير الجميع.. تغير والده ووالدته وأخوه أصبح غير موجود.. لم يرد أن يسأل والده عن مصدر تلك الطيبة فهو يتوقع بشكل كبير إجابته لكنه لم يكن يتوقع أن يومًا مثل هذا سيأتي، لا أحد كان يتوقع.

❊ ❊ ❊

- لم أعد أشعر بأي شيء، أنا فارغة يا ماتيلدا.
- عزيزتي صدقيني إنها مرحلة مؤقتة وقريبًا جدًا ستعودين كلوديا التي نعرفها.
- ربما لا أدري
- بضعة ساعات وستكونين جانبي في هولندا وسآخذك في حضني، لا تحزني.

لم تشعر كلوديا بأي مشاعر بعد تلك الجملة العاطفية.

- فقط ابقي بقربي.
- لا تتفوهي بمثل هذا الكلام مرة أخرى.. أنا بقربك دائما كلوديا.
- أحبك.
- أحبك.

فتح باب غرفتها بهدوء وإذا بوالدها يمسك كوبين من العصير ويبتسم لها:

- أيمكنني الدخول؟

قالت بعينين خاويتين ووجه أخفت الصدمة المشاعر من عليه:

- أجل.
- حسنا.

تخطى حقيبة السفر الفارغة الملقاة على الأرض:

- ما هذا؟ ألم تحضري حقيبتك؟ سنذهب للمطار خلال ثلاث ساعات.

كانت تمسك بيديها صفحة من جريدة عليها صورة شهاب ومكتوب باللغة الهولندية أصغر منتحر في مصر.. منذ وقوع الحادثة ومايكل فقد ابنته، فقد روحها المحبة للحياة المرحة، أصبحت كطيف أسود مسلوب السعادة.. لمس ركبتها وجلس بجانبها وقال:

- ابنتي.. هل تعلمين عن ماذا أريد أن أكلمك؟

لم تتحرك عيناها عن الجريدة.. ضحك مايكل محاولا كسر رباط الحزن الذي

ربطت كلوديا به نفسها وقال:

- سؤال غبي أعلم هذا، أريد أن أكلمك عن ما تمسكينه بيدك.. لقد رحل.

نظرت إليه بدون حزن أو غضب أو سعادة أو أي شيء، كانت أشبه بدمى العرض في محلات الملابس.. أكمل الأب بعد أن أفلت عينيه من عيني ابنته:

- ما حصل قد حصل، سواء أنتِ تقبلتِه أم لا، الحياة تمر، هذه هي الفكرة.

تمنى لو استطاع أن يقطع الصحيفة ويقطع معها كل ذكريات كلوديا عن شهاب.. صدفة لعينة تلك التي جمعتهما.

- أعلم أنكِ ستعودين مثل ما كنتِ وأعلم أن هذا سيكون قريبًا جدًا.

أضاف وهو يخرج من الغرفة:

- حضّري حقيبتك سريعًا، الطائرة لن تنتظر.

نظرت لصورة شهاب الذي عرف ولو قليلا على نطاق أوروبي.. تعلم أنه ليس حادث انتحار بالنسبة لها أو حتى بالنسبة للرأي العام.. وضعت في الحقيبة كل شيء أتت به، الملابس وأدوات العناية الشخصية، صور مارلي سايرس وصورها مع ماتيلدا، بالإضافة إلى الصحيفة الهولندية.. اجتمع أفراد الأسرة خارجًا إلا هي، كانت آخر شخص يصل.. تجر حقيبتها ذات العجلات ببطء.. نظرة هادئة وشاردة وباردة.. لم يعهد بيتر أخته في مثل هذه الحال.. يدرك تمامًا أن لكل داء دواء، ودواء الاكتئاب هو العائلة والأصدقاء، فان فشل الأول نستخدم الثاني.. يتمنى أن تتولى ماتيلدا وباقي أصدقائها إرجاع كلوديا إلى نفسها.. تحدث بيتر إلى ماتيلدا البارحة وأخبرها عن الحالة النفسية التي وصلت إليها كلوديا فكلمتها لتحسن من نفسيتها، فأخبرته أنها مصدومة جدًا وحزينة جدًا ولكنها تعلم جيدًا ما تريده كلوديا، فكلوديا فتاة عاطفية وتريد أن يكون هناك من يحتضنها ويستمع لشكواها، وهذا أفضل ما توفره ماتيلدا بصدر رحب، وأقرت له أنها لم ترَ كلوديا شاردة هكذا من قبل.

وهذا ما وافق عليه بيتر وأيده وقال إنه ربما لصدمة وهول ما رأته، إن واقعة الانتحار ليست سهلة وكلوديا فتاة رقيقة القلب تحب كل الناس حتى وإن لم يظهر هذا عليها، ولكني أراه فيها كما أنها تعلقت بشهاب وكانت تظن أنه غامض ويحمل أسرارًا كثيرة وظنت أنه أشبه بأبطال الأفلام والروايات الذين تتعلق بهم جدًا، وهذا ما سبب لها تلك الصدمة الكبيرة.

سبقتها العائلة إلى الأتوبيس الذي سيوصلهم إلى مطار برج العرب.. سألت والدة كلوديا بيتر وهي تضع حقيبتها مع حقائب المسافرين أسفل الأتوبيس:

- هل كلمت ماتيلدا؟

رد بيتر وهو يضع حقيبته في نفس المكان:

- نعم ليلة البارحة.

سألته والدته وهي تصعد للحافلة:

- وماذا قالت لك؟
- قالت إنها تعلم كلوديا جيدًا وستساعدها بالطريقة المناسبة.
- صدقني لا أحد يعلم كلوديا أكثر مني ولم أجد لقلبها مدخلا.
- هل تقصدين أننا لن نستطيع تغييرها؟

صعدت كلوديا إلى الأتوبيس مقاطعة حديثهما.. والعائلة تشعر أنها ليست كلوديا، هي تمثال متحرك لها.. ضحكتها الجميلة وسخريتها من كل شيء انسحبت منها.. ما يصبّر العائلة عن طلبهم لطبيب نفسي يعجالها أملهم في ماتيلدا.

جلست بجوار أمها الحسناء وبعد خمس دقائق انطلق الأتوبيس إلى مطار برج العرب.. الطريق يمكن أن يأخذ من الوقت نصف ساعة تقريبًا، والطائرة بعد ساعتين فقط.. عقل كلوديا مليء بالأفكار والجمل، ولكن لا تستطيع أن ترتبها.. تتمنى أن يمر الوقت سريعًا وتصل إلى هولندا كي ترى ماتيلدا وتحتضنها وتشكو لها، تدرك تمامًا أن شفاءها سيكون على يدي ماتيلدا..

وصل الأتوبيس إلى مطار برج العرب والباقي على رحلتها أكثر من نصف ساعة.. تكلمت مع والدتها لأول مرة منذ ما يزيد عن يوم:

- أمي. سأتجول في المكان قليلا.

كادت الأم أن تسقط المثلجات متفاجئة وسعيدة، شكرًا يا إلهي:

- موافقة ولكن لا تبتعدي ولا تتأخري، عشر دقائق وتكونين هنا.

لم تهتم بأكثر من كلمة موافقة ومضت تسير في المطار.. أحست بعطش وكان متبقيًا معها آخر عشرة جنيهات مصرية فاشترت من عند محل صغير في المطار علبة مشروب غازي.. ودّت لو أنها لم ترَ شهاب أبدًا، لو أنه لم يدخل في حياتها، ولكنه دخل.. والآن عليها

أن تخرجه من ذكرياتها قليلا لكي تكمل حياتها بشكل طبيعي.. كل الأمر الآن أنها تريد ماتيلدا وتعتمد عليها وواثقة بها كل الثقة.. شيء سيء أن تحب شخصًا لدرجة التواكل الكامل عليه.. ستحاول تغيير هذا فيما بعد.. بعد عشر دقائق عادت إلى عائلتها التي تتحاشي جميعها أن تكلمها، فبعد محاولات عديدة لاستدراجها للكلام فشل معظمهم وإن كانت محاولة ناجحة فلن تتكلم إلا بجمل مموهة ضبابية لا يفهم أحد مغزاها مثل: سأفرح في الوقت المناسب، هناك ترتيب لكل شيء، أريد العودة إلى هولندا.. أصبح كل أمل عائلتها وأملها هي شخصيًا منعقدا على ماتيلدا.

آخر نداء للرحلة رقم ٩١٨ إلى هولندا.. أشارت لها والدتها بالإسراع فأسرعت، وفي داخل الطائرة لا تتذكر أي شيء إلا عندما فتحت عينيها في هولندا.

حب الوطن هو إحساس قوي نولد به جميعًا، وكلوديا تحب وطنها جدًا، تغني النشيد الوطني بكل حماس تحت العلم بوطنية.. تحتفل بكل المناسبات الوطنية وتحتفل عندما يفوز المنتخب الوطني.. أمان وانتماء شعرت به عند أول خطوة داخل هولندا، لم تثلج بعد ولكن الجو به صقيع.. مباني هولندا تراها أفضل مبانٍ في العالم، ومهندسو هولندا هم أفضل مهندسي العالم، لذلك تتمنى أن تكون مهندسة وتبني مباني يضرب بها المثل في الإبداع والحداثة.

منزل في غاية البساطة في غرب روتردام، فتح والدها الباب، قال مرحّبا:

- أهلا بكم في منزلكم.

صعدت كلوديا إلى غرفتها بصمت.. حاول مايكل رسم ابتسامة ولكنه فشل وقال بمرارة:

- علينا الاتصال بماتيلدا الآن.

أخرج بيتر هاتفه ورن عليها فردت من أول رنة:

- هل وصلتم؟
- نعم، وأنتِ هل أنهيتِ تدريب كرة القدم؟
- أجل، سآتي في خلال نصف ساعة.
- لا تتأخري.
- إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

قالت الأم:

- ماذا قالت؟
- ستأتي خلال نصف ساعة.

باب غرفة كلويدا الجرار عليه صورة أب راعي بقر يحتضن ابنه ومروحة سقف بيضاء، وفي الركن الأيسر شجرة شمسية يدخل إليها وفي الطرف الأيمن رفان تضع عليهما صورًا لها في أسفار خارجية وجوائز دراسية..

أسندت حقيبتها للحائط ونامت بملابس السفر.

طرق باب المنزل، إنها ماتيلدا بشعرها الأحمر مسرح بتسريحة الكيرلي، وعيناها زرقاوان ترتدي نظارة شمسية خلعتها عندما فتح الباب، وترتدي قميصًا أبيض، قابلتها والدة كلوديا بترحيب:

- ماتيلدا عزيزتي تفضلي اجلسي.

أريكة زرقاء تتسع لأربعة أشخاص، ونمارق بيضاء ورمادية وزرقاء وكرسي أبيض بقدمين زرقاوين يجلس عليه والد كلوديا، طاولة قصيرة مربعة.. يجلس بيتر على الأريكة.

- صباح الخير.

رد بيتر ووالده معًا:

- صباح الخير.

ابتسمت ماتيلدا:

- هل يمكن أن أجلس هنا؟ وأشارت إلى جانب بيتر.

فأجاب والد كلوديا:

- بالطبع اجلسي.

جلست بجانب بيتر، سألها بيتر متعديًا الكلمات الترحيبية والعبارات المبتذلة:

- ماذا تخططين لفعله مع كلوديا؟

لم تتوقع أن يأتي السؤال بهذه السرعة، ولكنها أجابت:

- لا تقلق أين هي؟

أجاب بيتر بغضب مكظوم:

- في غرفتها تبكي أو تشاهد صورة هذا الفتى اللعين.

قالت ماتيلدا وهي تقوم:

- حسنا سأذهب إليها الآن، تمنوا لي أن أساعدها.

طرقت باب غرفتها:

- كلوديا، أنا ماتيلدا، كلوديا.. كلوديا.

خافت أن تكون قد آذت نفسها ففتحت باب غرفتها لتجدها نائمة بملابس السفر وحتى لم تخرج محتويات حقيبتها.. لطيفة جدًا وهي نائمة معبرة دون أن تتكلم.. أيقظتها ماتيلدا:

- كلوديا.. كلوديا.

استيقظت وفركت عينيها:

- ماذا؟ ماتيلدا؟

- أجل، لقد جئت من أجلك، أعلم أني أزعجك لكن استيقظي.

- لا.. لم تزعجيني، كنت أريد رؤيتك.

قالت ماتيلدا في نفسها: إنها تتكلم معي، هذا جيد حتى الآن، أعتقد أن الأمر لن يحتاج طبيبًا نفسيًا:

- أنا هنا، قولي كل ما تريدين قوله.

سكتت كلوديا فترة قلقت ماتيلدا من أنها ربما لن تتكلم.. زحفت كلوديا على ركبتها حتى وصلت إلى ماتيلدا وارتمت في حضنها وأخذتها

ماتيلدا بحنان ومسحت على شعرها.. أخذت كلوديا في البكاء وقالت كلامًا حبسته في صدرها طويلا:

- لقد كان صعبًا، لم أتوقع أن هذا سيحدث، كل شيء، الأمر كله كان صدفة، كنت هناك وفجأة ظهر.. كلام، مشروب، فندق، رسالة، إلى اللقاء، إلى اللقاء، لم أستوعب وحاولت أن أنسى وكدت أنجح في هذا حتى يوم في الإسكندرية كنت نائمة أنا وأخي، تمشينا إلى كوبري.

اشتد بكاء كلوديا وماتيلدا تحتضنها كأم لها:

- أفهمك يا كلوديا.

أكملت كلوديا بصعوبة بالغة من بكاء حاولت منعه بكل الطرق:

- قلت له إننا سنكون أصدقاء، وإن كان الماضي سيئًا فالمستقبل سيكون باهر الجمال، لم يستمع إليّ وقال إني سأخذله أو هو سيخذلني، وقفز إلى الماء، لم أستطع منعه، رمى إليّ بورقة ودفتر لم أستطع قراءتهم لأنهم بالعربية، سلمتهم للشرطة وأتت الإسعاف وحملت جثته والصحافة والتلفاز، وفي اليوم التالي كانت صوره وفيديوهاته في كل مكان، حتى صحفنا تحدثت عنه، أشعر بالذنب الشديد.

- لا.. أنت لم تذنبي.

- أعلم.
- يجب أن تعودي لحياتك.
- أعلم.
- أنا أحبك وكذلك عائلتك وأصدقاؤك.
- أعلم.. فقط كل ما أريده هو النوم وغدًا سنفعل كل شيء، أنا شعرت بتحسن لأنك بجانبي، ولكني أريد النوم.

لم تتكلم ماتيلدا ثم غطت كلوديا في نوم عميق وهي في حجر ماتيلدا.. بعد ساعة أو أقل دخلت عائلة كلوديا.

- ماتيلدا.. ماذا فعلت؟
- شششش.. إنها نائمة، أغلقوا الباب بلطف.

شعروا بالسعادة والامتنان لماتيلدا لأن ابنتهم نائمة في حضنها وستكون سعيدة وستعود قريبًا لحياتها كما كانت.. من المستحيل أن تنسى كل شيء طبعًا ولكن جزءًا كبيرًا منه.. تأملت ماتيلدا وجه كلوديا النائمة بحب عميق.. وبعد نصف ساعة تعبت من الجلسة فأزاحت رأس كلوديا بسلاسة ووضعته على السرير فنامت هي أيضًا بجانبها على السرير.

١٣

أوصلها التاكسي إلى باب البيت.

- هنا يا آنسة؟
- أيوه هنا.

إن كان هناك شيء ستفتخر به سنين عمرها القادمة فهو ما فعلته اليوم.. كانت تشعر بالراحة والإيمان في نمط الحياة الذي رسم لها، لم تفكر يومًا أن تفعل شيئًا مختلفًا وليس اختلاف لمجرد الاختلاف، ولكن اختلاف آراء وأفكار وحب مغامرة.. شهيق وزفير تقول في نفسها: أنا واثقة لم أفعل شيئًا خاطئًا، لا شيء أخفيه، لا شيء أخاف منه، كل شيء سيمر.

تجلس والدتها على أقرب كرسي للباب وتتحرك من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام وتقول:

- حبيبتي يا بنتي.

عندما رأتها انتفضت بجنون وأمسكت بشعرها ورمتها على الأرض:

- نازلة من غير حجاب ومن غير ما تقولي لحد يا بنت الكلب؟ أبوكي بيدور عليكي في الشوارع يا سافلة.

تأملت روان بشدة:

- اااااا سيبيني يا امّا.
- أسيبك إيه؟ ده انت ليلتك سودا.

خرجت أختها من الغرفة وأكملت السباب:

- جيتي يا سافلة يا قحبة؟ انت ماتربتيش.

ردت روان وبالكاد استطاعت أن تتكلم بينما أمها تمسح بوجهها الأرض:

- يا سلام على تربيتك يا حبيبتي.

شهقت الأم مصدومة من هذه الوقاحة في أخلاق ابنتها:

- انتي بتردي على أختك!! انت اتجننتي خلاص.. روحي يا بنت كلمي أبوكي وجوزك ييجوا يربوها من أول وجديد.

فقالت روان ما لم يتخيل أحد أن تقوله يومًا ما:

- انت اللي المفروض تتربي من أول وجديد يا مجنونة.
- يا لهوي البنت دي اتنجننت بجد وللا إيه؟
- باين لها كده.

ضغطت وجه روان بالبلاط بقوة وقالت وقد طفح بها الكيل من ابنتها العاقة:

- هو انت محدش مالي عينك وللا إيه؟

تكلمت شيرين في الهاتف:

- ايوه يا بابا روان جت.. مش عارفة بس شكل مخها اتلحس.. عايزينك بسرعة انت فين؟ دي بتشتمني وبتشتم أمها.. آه والله بتقولها يا مجنونة.
- محمد رسول الله مع السلامة.

رفعت الأم رأس روان وضربته بالأرض عدة مرات وقالت وقد تملك منها الغضب:

- هتعملي فيها مجنونة إحنا أجن منك، في إيه يا بت انتي نسيتي نفسك ولا إيه؟
- أنا قلتلك نرميها لراجل يتجوزها ونستريح منها.
- والله ده اللي هيحصل ويبقى يربيها بدماغه يعمل فيها اللي هو عايزه.

أدمت روان من رأسها وهي تكافح كل دمعة تحاول الخروج فهي ليست في محل ضعف، إنها قوية، إنها متمردة.

- هموتك، أعمل فيكي إيه؟
- فردت روان وهي تعني فعلا ما تقوله:
- ده أنا اللي هموتك.

لم تجد ردًا فابنتها جنت بالفعل.. فاقترحت شرين:

- دخليها الأوضة تتكفي من شر لسانها لحد ما ييجي أبوها وكريم ومحمد يربوها.

أمسكتها الأم من شعرها ويبدو أنها اقتنعت بالفكرة، قالت والرزاز يتطاير من فمها:

- هنجوزك ابن عمك وريني هتعملي إيه.

لم ترد أن تعلق حتى تدخل الغرفة بسلام، ومن هناك تفكر في الخطوة.. دفعتها لداخل غرفتها:

- خشي.

لمست مكان الدم في ناصيتها وأقرت أنها لا يمكن أن تتحمل أكثر من هذا، إن استمرت معهم سيزيد التعذيب والضرب ومن ثم ابن عمها الذي سيغتصبها ويضربها بلا رحمة.. لا بكاء أنا متمردة، يجب أن أهرب، شعرت بالحماس لهذه الفكرة.. ولكن إلى أين وكيف ومتى؟ الليل عندما ينام الجميع ولكن كيف؟ ألم رأسها يزداد فتمسك مكان الدم، لم تنزف بمثل هذا القدر من قبل ولم تتمرد بمثل هذا القدر من قبل.. أراحت جسدها على الأرض، لا تعلم إذا كانت نائمة أو مستيقظة أو أن الأمر برمته حلم أو خدعة من نوع ما.. إنها فقدت الكثير من الدماء، أصبحت شبه ميتة، تشعر أن الغرفة تدور أو هي التي تدور.. سمعت صوتًا مشوشًا لفتح باب وما يبدو أنه تبادل أحاديث وقفل يفتح وضوء يدخل إلى غرفتها الظلماء.. رأى محمد دماءها فظن أنها ميتة فجرى عليها مروعًا:

- روان روان.. إيه إلى حصل؟

اطمئن قليلا عندما رآها فاتحة عينيها، بدأت تستوعب ما يحصل الآن.. الرؤية غير واضحة وكل صوت تسمعه غير واضح ويكاد رأسها أن ينفجر.. اقترب الأب مع كريم:

- إوعى يلا.

خاف محمد من والده فانسحب خارج الغرفة.. أوقف الأب روان من ملابسها وألصقها في الحائط وقال بلهجة ليست غاضبة ولكنها جدية كل الجد كأنه يتكلم عن أمر مصيري:

- اسمعيني يا بت انت، إحنا ماعرفناش نربيكي، محدش هيضربك، ابن عمك هييجي بكرة، هتتجوزي وتروحي على بيته وهو يتصرف معاكي زي ما هو عايز، مافيش تعليم تاني سمعتي؟

صوت والدها قريب جدا من أذنها ورأسها لا يحتمل أي صوت آخر.. عندما تأخرت في الرد صرخ فيها:

- سمعتي؟

آلمها هذا جدًا ولكنها أجابت كي تخلص نفسها منه:

- سمعت.

ترك ملابسها فوقعت في الحال:

- يلا يا كريم.

النور يختفي وصوت قفل الباب مرة أخرى.. رجعت إلى هذيانها وسمعت بعض الجمل من الخارج.. ماحدش هيكلمها، بكره ابن

عمها ييجي ياخدها ونخلص منها.. وسمعت أيضًا صوت والدتها وهي تكلم عائلة ابن عمها وتحدثهم عن بنتها وعن رأيهم في الزواج بها.. لم تسمع الكثير من المكالمة ولكنها تعلم أنها مهما قالت من مساوئ عن روان فهذا لن يُحدث فرقًا، فهذه فرصة ذهبية بالنسبة لابن عمها وعائلته لكي يتزوج من فتاة في جمال روان.

سمعت والدها يقول:

- دخلولها أي طفح تطفحه.. مش هنسلمها له جثة.

النور يدخل الغرفة، أطباق توضع على الأرض، فظلام مرة أخرى، صوت الباب وهو يقفل.. النزيف توقف ولكن الصداع مستمر، حركت جسدها بصعوبة لكي ترى ماذا وضعوا لها.. ماء وطبق سلطة وطبق فول، زحفت إلى الماء وشربته كله.. لا تعرف كم مر من الوقت.. وهل هي وحيدة أم لا، وهل هذا ليل أم نهار.. استندت إلى الحائط حتى وقفت وفتحت دولابها بهدوء وأخرجت منشفة وأزالت جزءًا من دمها الملتصق بجبهتها.. وتأوهت من الألم، ولو لم تبكِ فلأنها ترى نفسها قوية، يمكنها أن تعاند دموعها، سألت نفسها:

- لماذا كل هذا؟ لماذا يفعلون بي كل هذا؟ لماذا أفعل بنفسي كل هذا؟ إن لم أتصرف ستسوء الأمور أكثر، هذا الرجل ابن عمي أكبر مني بعشر سنوات، تزوج مرتين وطلقهما ومعروف بمعاملته السيئة لهما،

مستحيل أن أعيش معه أو معهم، سأهرب الآن.. يجب أن أفكر في كل أصدقائي، أي أحد يمكن أن يساعدني.

عصرت ذاكرتها باحثة في كل من تعرفه عن أي أحد يمكنه مساعدتها، أي أحد تنطبق عليه المواصفات.. فتاة طيبة تحب مساعدة الناس، يمكنها أن توفر لها مسكنًا.. لقد وجدتها، إن كنت تحتاج للمساعدة فهذه الفتاة هي أفضل من يمد يد العون.. يتبقى فقط كيف تخرج من المنزل.. هناك شباك مغلق في الغرفة.. نظرت من فتحات النافذة.. إنه الليل.. هل الجميع نائمون؟ هل نحن في ليل يمكنها الهرب فيه؟ روح المغامرة والبحث عن المتاعب تناديها.. لم تكن تعلم أنها مغامرة بهذا الحد.. يقال إن أفضل ما تفعله المرآة هو أنها تعكس صورة من يقف أمامها، هكذا يجب أن تكون روان في هذا الوقت، يجب أن تكون كالمرآة تعكس كل أفكارها المجنونة بدون أدنى تعديل.. فتحت النافذة ببطء، الشارع فارغ لا يبشر بتحرك، المحلات مقلة لا أصوات سيارات، يبدو أنه آخر الليل، هذا هو الليل الذي يمكنها أن تهرب فيه، لكن الغريب أن أخاها ينام معها في نفس الغرفة ولم يأتِ لينام.. يمكن أن يكون ساهرًا إلى الآن أو هو نائم مع والدته أو أن كل هذا ما هو إلا هلوسة بفعل النزيف، ذكّرت نفسها بأنها يجب أن تكون مرآة.. أخرجت من الدولاب ملابس لها ولوالدتها، ربتطها معًا ثم علقت طرف الملابس الأول بالنافذة وألقته.. يا إلهي إنه يصل إلى نصف المسافة فقط، هذا

مزعج، لن أستطيع الهروب، أنا مرآة.. رفعت مرتبتها الإسفنجية وألقتها في المكان المطلوب، أخرجت قميص عمل والدها وجمعت كل ما يمكن أن يفيدها؛ ملابس داخلية، أدوات للشعر وهاتفها، وربطت القميص ورمته على المرتبة، والدور الباقي عليها يجب أن تقفز أيضًا، أحست أن المسافة بعيدة رغم أنها في الدور الأول، وهناك حبل ملابس ومرتبة إسفنجية، الخوف من القفز يعلوه الخوف من المجهول.. ولكن روح التمرد لديها شجعتها.. جلست على طرف النافذة وأمسكت بالحبل المكون من الملابس.. ألقت بثقل جسدها على الحبل.. فلم يحتمل وزنها فانقطع.

سقطت مباشرة على المرتبة من على بعد خمسة أمتار، انفلتت منها صرخة من هول الصدمة رغم تعهدها بعدم إصدار أي صوت، لم تشعر بألم إلا في رأسها الذي عاود النزيف مرة أخرى من أثر الاصطدام، لم تشعر أنه ينزف في بادئ الأمر، فكان كل همها أن تطمئن لعدم استيقاظ أحد، فلقد كان صوت الاصطدام عنيفًا نوعًا ما.. نظرت إلى النافذات القديمة التي لم تصلح من قبل ولادتها.. لا أثر لأحد استيقظ الحمد لله.. بعد اطمئنانها توجهت إلى رأسها الذي عاود النزيف.. لأول مرة تشعر أنها ممكن أن تموت قريبًا.. دوار وصداع ودم يقطر على الأرض.. مشت خطوتين بعدها وقعت، استندت على السيارات وهي تمشي كي تبتعد عن المنطقة.. دمها يتبعها ويترك أثرًا من السهل اتباعه.. قالت لنفسها: في الصباح

سيعرفون أني هربت، ربما سيبحثون عني وربما لن أشغل بالهم إلا قليلا، وسيكون الغضب من ابن عمي وعمي على أبويّ، وستكون هناك مشاحنة بينهم على جسدي، والأهم من ذلك يجب أن أفعل شيئًا حتى أبقى حية، وصلت بصعوبة إلى البنك الذي يقع في أول الشارع الذي يسكن فيه والد شهاب.. ألقت جسدها على الرصيف الخالي تمامًا.. وأخرجت هاتفها، ما زالت تتألم ألمًا بالغًا.. ضغطت على أزرار هاتفها القديم، لم يعد أحد يستخدمه إلا القليل من الفقراء.. وصلت إلى الاسم الذي تبحث عنه (سندس مجدي) اتصلت بالرقم، الساعة الثانية صباحًا.. همست تتوسل:

- يارب ترد.. يا رب ترد.. يارب ترد.

وأخيرًا ردت بعد أن كادت تفقد الأمل في آخر خيط يمكنها أن تعيش بسببه.. قالت سندس بصوت ناعس وغاضب بعض الشيء:

- أيوه يا روان الساعة ٢ بالليل.

قالت وهي تتأوه من الألم ولكن سعيدة ومتفائلة:

- عشان كده باكلمك.

أفاقت سندس في لحظتها عندما لاحظت أن روان تتألم:

- في إيه مالك؟

لم تستطع روان الرد وظلت تتأوه من الألم:

- ردي عليا.

لا رد من الجهة الأخرى.. شعرت سندس أنه مقلب منها فانزعجت كثيرًا:

- روان لو في حاجة مهمة كلميني.

هنا تحاملت روان على ألمها وتكلمت خشية أن تقفل المكالمة:

- لا لا لا، في حاجة مهمة، أنا برة البيت ودماغي بتنزف ومش هاقدر أروّح وحاسة إني هموت.

- بتتكلمي بجد؟

لم ترد روان فزاد قلق سندس.. سكتت فترة لتستوعب ما قالته.. صديقتها في موقف حرج وكرد فعل طبيعي سألتها: ليه؟

صوت أنفاس روان في الجانب الآخر ثقيل جدًا ويبدو أنها تخرج منها بصعوبة.. قالت روان بصعوبة كأنها آخر كلماتها:

- سندس أنا باموت قولي حاجة مفيدة.

فاجأتها كلمة أنا باموت.

- لا بعد الشر عليكي.. صح صح.. انت فين حاليًا؟

قالت بعد عدة أنفاس ثقيلة:

- عند البنك.

- عند البنك.. إنت جنبك مستشفى روحي لها.

بعد أن قالت هذه الكلمة بدأت فعليًا بالزحف وسماعة الهاتف على أذنها، زحفت بكل قوتها كأنها مسألة حياة أو موت.. وهي كذلك فعلا.. قالت وهي تقترب من باب المستشفى: أنا ماعييش فلوس.

- مايهمكيش أنا بكرة هاجي وهادفع، لو سألوكي على الفلوس قبل ما آجي وده مستحيل يحصل قولي أختي بكرة هتيجي وهتدفع.

أكملت الزحف حتى وصلت إلى باب المستشفى، وهناك طبيبان في الاستقبال، جرى أحدهما عندما رآها ليفتح لها الباب مفزوعًا.

- أنا باموت يا دكتور.

صاح الطبيب ليوقظ زميله النائم:

- حالة طوارئ.
- إيه؟

ونظر إلى روان التي أغلقت المكالمة مع سندس.

❊ ❊ ❊

١٤

يجلس الدكتور هيثم المصري على كرسيه المفضل أزرق اللون وهو رجل أربعيني لم يُبقِ الزمن من شعره إلا القليل، سمين يحاول جاهدًا إخفاء هذا الكرش سواء باختياره ملابسه أو بالتمارين الرياضية لإنقاص الوزن، يضع على عينه نظارة طبية يرتديها من كثرة القراءة.. يشاهد التلفاز وهو يعرض الخبر الذي شغل بال الجميع بما فيهم الدكتور "انتحار فتى مراهق" صوت المذيع:

- إزاي كده؟ إزاي يحصل كده؟ معقولة عيل صغير؟

تأتي زوجته حاملة طبقين من البطاطس المقلية، وهي امرأة ممشوقة القوام محافظة على جمال جسدها وهذا ما تستفز به هيثم دائمًا، قمحية اللون وشعرها أسود لامع.. قالت مداعبة هيثم وهي تجلس بجانبه:

- البطاطس إلى بتخنك أهي.

أمسك طبق البطاطس وجمع الكثير من القطع وألقاها في فمه وقال بعدما أنهى بلع البطاطس:

- والله الواحد مش عارف من غيرك هيحافظ على كرشه إزاي.

ضحكت وربتت على كرشه: عشان بس تعرف قيمتي.

ضمها إليه: عارفها يا حبيبتي.

نظرت إلى التلفاز والإعلامي الذي يتحدث:

- معانا مدام آلاء من القاهرة نقول ألو.
- ألو يا أستاذ أنا متابعة برنامجك وباحبه قوي.
- شكرًا جدًا يا مدام آلاء، عند حضرتك أي تعليق عن موضوع الفقرة؟
- آه أنا عايزة أقول إن أهله هم السبب، لو أهله كانوا ربوه ماكانش هيبقي كده، كان هيتعامل مع الناس عادي وماكانش هيفكر إنه يكلم البنت دي، وماكانش هيهرب من البيت، أهله هما السبب ربنا يسامحهم.

يعبث المذيع في الأوراق أمامه:

- شكرا مدام آلاء.

تقول زوجته وهي تأكل البطاطس:

- وانت إيه رأيك في الموضوع؟

يقول بهدوئه المعتاد:

- موضوع إيه؟
- انت عارف موضوع إيه.

وهو يعلم بالطبع الموضوع ولكن لا يريد الإجابة، يسكت فترة طويلة ثم يجيب: معنديش رأي.

تضع آخر قطعة بطاطس في فمها وتضحك ضحكة استفزازية:

- يا راجل معندكش رأي؟ كل الناس اتكلمت وفتيت، إعلام صحافة نت، الناس بينهم وبين بعضهم، معقولة أشهر دكتور نفساني في مصر ماعندوش رأي؟

على الحائط العديد من الشهادات وشهادات التقدير تحصل عليها من مسيرته الطويلة كطبيب ومعالج نفسي..

مروحة حائط تتحرك يمينا ويسارًا وبجانبها ساعة فضية اللون وبجانب الكرسي الذي يجلس هيثم عليه مكتبة ضخمة تحتوي على ما يقرب من ٥٠٠ كتاب وفوقها توضع كل الكتب التي ألفها الدكتور في مجال علم النفس، ولوحات عليها أسماء الله الحسنى وآيات قرآنية وصور لأطفاله؛ مريم خمس سنوات، عصام سبع سنوات، ليلى ١٠ سنوات، وصورة يوم زفافه مع مدام جنى عبد العظيم زميلته في كلية الطب بعد قصة حب دامت أربع سنوات بدون ارتباط رسمي، وبعدها الخطوبة ثم الزواج، ولم يفقد الحب بينهما واحد بالمائة بل يزيد بينهما يومًا بعد يوم.

في البداية كانا يمتلكان نفس الحلم، أن يكونا أفضل أطباء نفسيين في مصر، أصبح الأمر كتنافس ودي بينهما، ومن نجح في هذا التنافس الودي هو الدكتور هيثم.. شرب هيثم من الزجاجة الموضوعة على الطاولة بجانبه وقال:

- لسه ماكوّنتش رأي.. في شوية حاجات هاعملها وعموما يوم التلات اللي جاي هاطلع على برنامج واتكلم في الموضوع.

سمعت كلامه وأخذت أطباق البطاطس راجعة بها إلى المطبخ، فتوقفت عند صورتهما في الزفاف وقالت مسترجعة ذكريات خمسة عشر عامًا من الزواج وأكثر من عشرين عامًا من الحب، وتذكرت أيضًا الفتى شهاب:

- تفتكر لو كان أهله بيحبوا بعض كان ممكن يعمل كده؟

وقف بجانبها ولمس هو أيضا الصورة العتيقة، ورغم قدمها ما زالت تحافظ على جمالها:

- العيلة أهم مكون في شخصية الإنسان.. دكتورة جنى.

دكتورة جنى.. تذكرت أيام الكلية قبل أن يقول أحدهما للآخر الكلمة السحرية (أنا باحبك) كانا ينادي أحدهما الآخر دكتور هيثم ودكتورة جنى.. وبعد أن قال هيثم لها إنه يحبها زالت الألقاب ولم يزل الاحترام بينهما.. يقال إن أقوى مراحل الحب هي ما لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات، وهذا ما وصل إليه الطائران من شبابهما وحتى بعد أن كبرا في السن حافظا عليه.. قبلها الدكتور بمنتصف جبهتها:

- هادخل أنام عشان عندي بكرة مشوار في اسكندرية.

- اسكندرية؟

اعتاد هيثم على شكوكها في كل مرة يسافر وحده:

- مشوار تبع الواد اللي انتحر.. هادخل بيته وهقابل أهله.. عايزة تيجي معايا؟

تمنت أن تذهب معه ولكن مدارس أطفالهما:

- أنا واثقة فيك يا حبيبي.

الساعة السادسة صباحًا.. استيقظ الدكتور هيثم وزوجته جنى، قالت وهي تودعه عند الباب:

- كل حاجة معاك؟

قال في نفسه:

- لقد بدأ الشريط.
- فلوسك محفظتك البطاقة مفاتيح البيت مفاتيح العربية.. متأكد إنك هترجع بالليل مفيش نوم برة البيت، خلي بالك من نفسك.

ركب سيارته الزرقاء سوداء الزجاج لكي لا يوقفه أحد ويطلب صورًا وتوقيعات على كتبه.. يستغرب أحيانا كثيرة من الشهرة التي وصل إليها، لم يحصل أحد في مجال علم النفس على مثل هذه الشهرة من قبل.. وهو على الطريق الزراعي المؤدي إلى الإسكندرية وسيارات ليس بكثيرة تمر بجانبه أغلبها ميكروباصات وعربات نقل تحمل بضائع مختلفة، فكر فيما يمكن أن يصير في لقائه الأول مع عائلة شهاب، لم يستطع أن يتوقع ما مكن أن يحدث.. فقط دعا الله أن يوفقه.

❊ ❊ ❊

في الصباح التالي لهرب روان لم يشعر أحد بأنها اختفت، مر الصباح عاديًا، استحم والدها وارتدى ملابسه استعدادًا للعمل، وأعدت والدتها الفطور.. تذكروها أخيرًا على مائدة الفطور ولكن والدتها اقترحت أن يتروكها كالكلبة ولا تأكل معهم، رجح والد روان كلام الأم وأضاف أنها لم تعد ابنتهم بعد الآن وأن خلفتهم لفتاة شيطانية مثلها هو عقاب من الله.. اتصل ابن عمها ليطمئن على العروس، طمأنته أن العروس سليمة وسعيدة،

وعندما طلب مكالمتها قالت إنها نائمة وأول شيء ستفعله بعد استيقاظها هو أن تكلمه، وفي كل حال قريبًا جدًا ستكون ملكه.

شعر محمد بالأسف على أخته لأنها ستتزوج مبكرًا ومِن هذا المجنون، من المؤكد أن حياتها ستتحول حجيمًا.. وكأنها كانت جنة أو حياة من قبل.. لم يتذكروها، نسوها أو تناسوها، حتى إذا كان والدها سيذهب إلى العمل في الورشة تذكرها وهو يخرج من الباب فقال لزوجته:

- ابقي صحي روان وأكليها أي خرا وخليها تكلم ابن عمها، وخلي بالك لتقول حاجة كده ولا كده احنا مش ناقصين، عاوزين نخلص منها بعد كده يتولاها ابن عمها.

ورحل والدها إلى العمل.. وفتحت والدتها باب غرفتها على مضض لترى الغرفة مقلوبة رأسًا على عقب، ملابس الدولاب ملقاة على

الأرض والطعام ملقى على الأرض كذلك، والأدهي أن روان ليست في الغرفة.. فزعت من عدم وجودها، هذه كارثة بكل المقاييس، دارت في الغرفة ونظرت من النافذة المفتوحة لترى المرتبة ملقاة في الشارع والملابس فوقها.. عاد الوالد إلى المنزل بعد ثوان من نزوله.. شم محمد رائحة فألَ سيء في المكان.. قال الوالد وغضب أشد وأعنف من أي فترة مضت:

- البنت راحت فين؟

خافت من هيجانه فقالت تدافع عن نفسها:

- والله يا خويا ما اعرف أنا زيي زيك بالظبط.

انتفض محمد مفزوعًا عندما سمع جملة البنت راحت فين، جرى إلى غرفة روان ورأى المكان مقلوبًا رأسًا على عقب وأباه كمجنون ثائر.. عينا محمد ضاقتا وعض شفتيه وهو يقول بصوت خفيض:

- فين روان؟

يقول الأب بعدما هدأ قليلا:

- أحسن أهو ربنا خلصنا منها.

- اه بس ابن أخوك اللي وعدناه بيها؟

كرر محمد جملته بصوت تصاعدي حتى صارت أشبه بالصراخ الهستيري:

- فين روان؟

نظر إليه والده باشمئزاز وانزعاج:

- انت هتتجنن علينا انت الآخر ولا إيه؟

علا صوته بنفس الجملة.. فاقترب منه والده وهو يجز على أسنانه ولكن فجأة محمد جرى.. جرى خارج المنزل ودموعه تتساقط على الأرض:

- أنا عايز أختي، أختي فين؟

قالت الأم:

- يا نهار اسود، جيبه بسرعة.

جرى والده وراءه لكي يلحق به قبل أن تكون فضيحة.. ولكن الفضيحة بدأت فعلا، عندما أصبح يجري وراء طفل صغير في الشارع أمام الناس، أحس بأنه يصغر من نفسه، ففكر أن يتوقف ويعود أدراجه مرة أخرى، ولكن هذا سيجعل موقفه أسوأ ألف مرة أمام كل هذه الأعين التي تراقبه، فكر أن الأفضل هو أن يمسكه ويعود إلى المنزل وينهي هذه المهزلة.. ما زال محمد يجري حافيًا ويصرخ بدموع تتلألأ في عينيه:

- عايز أختي، هاتولي أختي.

أسرع الوالد في جريه حتى بدأ يلهث، استطاع الوصول إليه ورفعه عاليًا.. وأعين كل من في الشارع معلقة عليه وعلى محمد والكل يبرر حسب فهمه ومخيلته.. أحس الوالد بالإحراج والغضب فصفع محمد صفعة بكل عزمه.. وكانت تلك الصفعة ضغطت تحويل سرينته من صراخ هستيري إلى بكاء هستيري، سحب المرتبة

الإسفنجية معه إلى فوق وعندما وصل وضع محمد على الأرض وهو يبكي وقال لزوجته بنفاد صبر:

- سكتي الولا ده.

فصاحت فيه:

- اسكت ياد.

نزلت ابنته شيرين وزوجها كريم، سألت شيرين والدها بارتباك:

- هنعمل إيه يابا في المصيبة ديه؟

جلس الوالد على الكرسي ينهج ويجفف عرقه:

- المشكلة ابن عمك، إنما هي أحسن، في ستين داهية، ده احنا صبرنا عليها بزيادة.

لم يشعر محمد أنه يحب أخته هكذا، ولكن أخته تعنفه وتضربه، تستهزئ به، ولكنها أيضًا تضمه وتحتضنه وتشجعه وتقول له كلامًا معسولاً، تصرفاتها غريبة أحيانًا، ولكنه يعلم أن مخها مغسول، إنه يحبها، إنها أخته وهو الآن فقدها.. ضاق الأب ذرعا بصوت بكاء محمد فقال منزعجًا:

- يووووه، ما تشوفي الواد الأهبل ده ماله عايز إيه؟

قال كريم بجدية:

- الولا ده عبيط من يومه.

فأجاب الوالد بحسرة:

- اه عبيط من يومه، عيل جاه الدنيا ناقص وبنت كانت كويسة كبرت اتجننت.

ثم أضاف:

- إحنا ماعندناش غير بنت واحدة شيرين حبيبة قلب أبوها.

شعرت شيرين بالفخر:

- الله يخليك لينا يابا.

قطع الوالد وصلة الحنان بقوله:

- بس احنا هنعمل إيه مع ابن عمها هنقوله إيه؟

سكت الجميع ولا أحد يعرف ماذا سيفعلون مع ابن عمها، ولا أحد يشعر بذرة ذنب على ابنتهم "راحت مطرح ما راحت" هكذا يقولون كل ما يسأل أحد عن المكان الذي ذهبت إليه.

١٦

وصل الدكتور هيثم إلى منزل شهاب المكون من خمسة طوابق، تصميم لطيف وزرع يحيط بالعمارة.. حارس وزوجته يستمتعان بكوب شاي أمام العمارة...

أوقف سيارته ونظر إلى الصورة التي في يده وأنزل جزءًا من زجاج السيارة، إنه نفس المكان.

الصورة التي رسمها لعائلة شهاب والتي لا يريد التعامل معها كحقيقة حتى لا يفاجأ إن رأى غيرها تشغل خياله الآن.. ارتدى نظارة شمسية وكابًا لكي يعفي نفسه من الأناس الذين يريدون التصوير معه أو توقيع كتاب أو استشارة نفسية مجانية.. الجميع يتذكر أنه مريض نفسي عندما يراه.. يترجل من سيارته ويحمد الله أن المكان كان خاليًا تقريبا.. تعرف عليه الحارسان رغم الدفاعات الواهنة من نظارة شمس وكاب.. ابتسم لهما وهما يأتيان إليه ليرحبا به. هو يحب الجمهور حقا وكل الناس يحبهم ويتمنى لهم الخير والسعادة، ولكن هناك أشياء كثيرة أهم من الثرثرة معهم، وياليتهم يفهمون أن وقته ليس ملكًا لهم..

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- آنست ونورت.
- النور نوّر أهل الدار.
- أنا رايح للباش مهندس محمد عبد الله.
- اتفضل اتفضل الدور الأول الشقة رقم ٢٣

قالت الزوجة للحارس هامسة:

- كل شوية واحد شكل ولا إيه؟

رهبة أحسها خارجة من الباب.. في داخل هذه الشقة ربي أصغر منتحر في تاريخ مصر، قد لا يكون أصغرهم أو الوحيد الذي انتحر في مثل هذا السن، ولكنه أكثر من صلت الضوء عليه.

ضغط الجرس.. وحش كاسر ميت القلب من سيفتح له، هكذا كان يتصور، فالذي ظهر على التلفاز من الكلام عنه لم يظهر غير ذلك، ورغم شهرته لم يتمكن من معرفة تفاصيل التحقيق.. فتح له شاب في مقتبل العمر ذو كتلة عضلية حليق شعر الرأس، فتح فمه مندهشًا بعدما رأى الدكتور: دكتور هيثم شخصيًا؟! اتفضل.

- يزيد فضلك يا حبيبي.

فكر الطبيب في نفسه أن مظهره الخارجي يوحي بأنه شاب مسالم ولطيف ولكنه تعود من مهنته كمعالج نفسي أن لا ينخدع بالمظاهر: اتفضل اقعد هنا يا دكتور.

- شكرًا.

جلس هيثم على الأريكة وجلس نور على الكرسي بجانبه، أول شخص من العائلة يظهر، أين البقية؟

- أومال فين والدك ووالدتك؟

أذكر آخر يومين سابقين آلمته الذكريات وآلمه السؤال والإجابة الصريحة ستؤلمه أكثر، ولا يعلم حتى إذا كان الدكتور يستحق الإجابة الصريحة، زاره صحافيون كثر في اليومين الماضيين وإعلاميون يرفض الظهور معهم كي لا تأتيه شهرة لا يستطيع التعامل معها، وفي كل لقاء صحفي أو حتى مكالمات المسؤولين لم يجب على هذا السؤال إجابته الحقيقية.. أربع ثوان منذ أن سأله هيثم هذا السؤال ودكتور هيثم يمعن النظر فيه وينتظر الجواب لأنه يعتقد أن الإجابة بسيطة لا يعلم أن تذكر الإجابة مؤلم وقولها قد يكون مميتًا، لاحظ الدكتور هيثم أن نور يتمنع عن الإجابة ولاحظ أيضًا أنه في صراع نفسي، شيء ما حدث مع والده ووالدته، أراحه من عبء الإجابة:

- لو مش عايز تجاوب براحتك وأنا بعتذر لك لو السؤال ضايقك.

لم يحرك عينيه من الأرض وقال بصوت خفيض مكسور:

- لا خالص مضايقتش.

من الجلي البين أنه يحب والده ووالدته جدا، وإلا لماذا يحزن عليهما هكذا؟ وكيف هذا الحب لم يأخذ مجراه إلى قلب أخيه

الصغير؟ شكله مكسور ونظرته للأرض توحي بأنه غارق في الذكريات.. قرر أن يدخل في صلب الموضوع كي لا يضيق عليه أكثر من هذا:

- اسمع يا ابني، أنا مش جاي أسألك وأرخم عليك زي ما كل الصحفيين عملوا، أنا بس عايز تسمح لي إني أقرا مذكرات شهاب.

قال نور في نفسه ما هذا الشخص؟ إن كان ينوي أن يذكرني بكل ما يمكن أن يحزنني فلقد نجح بامتياز، ماذا يريد من مذكراته؟ بل كيف علم بها من البداية؟ إنها شيء شخصي.. كظم غيظه من السؤال وقال: عايز أعرف حاجة واحدة.. انت عرفتها منين؟

- هقولك.. بعد الواقعة بيوم يعني امبارح، كلمتني بنت هولندية اسمها كلوديا قالتلي إنها قابلت شهاب..

قاطعه نور قبل أن يلج هيثم في حكايات يعرفها كلاهما:

- عارفها، قريت عنها في المذكرات.
- جميل جدا.. البنت دي طلبت مني بحكم كوني أشهر محلل نفسي في مصر إني أقرا مذكراته وأحلل نفسيته.

تحفظ نور على هذه الجملة:

- تحلل نفسيته؟؟
- انت شايفني بياع طماطم؟ أنا دكتور نفسي.
- عارف.

ثم سكت الاثنان فترة لم ينظر نور لعيني هيثم، فقط كان يهز رجله وهو ينظر للأرض والعكس بالنسبة لهيثم، فلقد كان يراقبه بفضول ويزيد رغبته في قراءة ما في داخل المذكرات.. قال نور بعد فترة:

- ماشي المذكرات في أوضته وعلى مكتبه.. الأوضة هي أول أوضة تقابلك.

أخفى هيثم ابتسامته التي ستغدو مستفزة، اكتفى فقط بشكره.. وولج إلى غرفة شهاب بمظهره الراقي، يبدو أنها لم تنظف منذ فترة.. صور لأدباء كبار ومكتبة كبيرة لمثل من هم في سنه، أدار عينه على كل ما في غرفة شهاب والمكتب الأبيض أمامه سبعة كشاكيل وورقة، أمسك الورقة ليبدأ في قراءتها.. قال قبل أن يبدأ القراءة:

- الحاجات دي كتبها خلال حياته كلها، هالحق أقراها؟ يا رب يقبلوا إني آخد المذكرات معايا البيت.

وبدأ في قراءة الرسالة.

رسالتي إلى عالم الأحياء

"عندما تقرأ هذه الرسالة فاعلم أني تركتكم ورحلت لأني فهمتكم وأمعنت النظر فيكم ووجدت أنكم جميعكم منافقون ومخادعون ومثيرون للغثيان، أقنعتكم كثيرة كيف لا تملون منها؟ كيف تصالحتم مع نفاقكم؟ تصالحتم معه بغطاء الإغلاق الأخلاق المبرر الأول لشناعتكم.. معتقداتكم فاسدة وعفنة، أفكاركم لعينة

ودموية، تقتلون المختلف أو في أحسن الأحوال تضطهدونه.. حاولت تقبلكم وتقبل أن هذه الحياة ليست كلها سعادة.. حاولت النظر إلى نصف الكوب المليء ولكن للأسف نصف الكوب كان ممتلئًا بالسم، لا أعلم إذا كنت مريضًا نفسيًا أو كافرًا أو لم أفهم الحياة.. فأنا أعلم جيدًا أن كل الأوصاف التي ستصفني بها لمجرد أن تبقى في وهمك وتقفل عينيك عن أهم حقيقة بل الحقيقة الوحيدة وهي أن هذه الأرض ليست مكانًا للعيش، ليست مكانا للحياة.. كُل لتألم معدتك.. مارس الجنس لتتعب بعده، أوهم نفسك بأنك تعيش قصة حب، أوهم نفسك أن أصدقاءك يعبئون بك، وأوهم نفسك أنك مؤثر بإيجابية، عش هذا الوهم واستمتع به.. تمرّغ في الوحل وأقفل عينيك وأنفك وعش في وهم أنك تسبح مع الدلافين، أوتدري؟ هذا لن يغير من حقيقة الوحل شيئا نصيحتي إليك إذا كنت تريد أن تعيش.. تغابى وأغلق عينك وعقلك، كن غبيًا فالأغبياء هم من يسعدون هنا.. إلى اللقاء".

أعادها الدكتور عدة مرات.. كان الحقد والغضب اللذان كتب بهما شهاب هذه الكلمات ينطق من السطور، وكان الحبر هو الدم الذي كان يغلي في عروقه من الحياة السوداء التي عاشها.. أدار الدكتور هيثم ليرى الكلمات المكتوبة وراءه.. الدفتر الأزرق صفحة ٤٧ الدفتر الأحمر صفحة ٣١ الدفتر الأصفر صفحة ١٠٩ الدفتر الأخضر

صفحة ١٩ الدفتر الأبيض صفحة ٧٧ الدفتر البرتقالي صفحة ١٨٥ الدفتر البني صفحة ١ ... لو شغلك أنا انتحرت ليه.
أمسك أول دفتر، أزرق اللون ومكتوب عليه من الغلاف (٢٠١١_٢٠١٢ ٩ سنوات) الصفحات مرقمة ومليئة بكلمات المعاناة التي لم يجد من يتلقاها أفضل من الورق الأصم الأبكم.. قلب الصفحات حتى وصل إلى رقم ٤٧ وبدأ في القراءة

❋ ❋ ❋

مريم

"النهاردة كان الدور على ماما إنها تجبني المدرسة.. الرخم صلاح ضربني تاني وأخد مني المصروف.. أنا كنت عارف إنه هيعمل كده عشان كده خبيت ٢ جنيه في الشراب لما سابني هو وأصحابه رحت أشتري البسكوت اللي عارف إن مريم بتحبه، اشتريت اتنين واحد ليا وواحد ليها واستنيت لحد ما الفسحة جت وادتها البسكوت حبته قوي وقالت لي شكرًا.. والله أنا كنت مبسوط قوي.. ومش عايز أعمل أي حاجة غير إني أتكلم معاها لأول مرة حد يكلمني، لأول مرة أحس إني عايش وسطهم، كان نفسي تقعد جنبي في التختة بس مينفعش عشان صحبتها بتبقى قاعدة جنبها.. حصة الماث كلها بابص عليها.. حافظ كل حاجة عملتها وقالتها مش عارف ليه بس يمكن إني بحبها.. يمكن"

الدفتر الأحمر الصفحة ٣١

(بابا وماما)

" النهاردة ماما مشت من عند بابا قعدنا أسبوع.. لأول مرة أشوفهم مع بعض، الموضوع كان غريب بالنسبالي وأنا مش زعلان قوي إنهم سابوا بعض.. زعلان حبة صغيرة عشان كنت باروح المدرسة يوم مع بابا ويوم مع ماما ولا مرة رحت معاهم هما الاتنين وبشوف الناس إلى معايا في الفصل باباهم وماماتهم بيجيبوهم مع بعض عادي.. ماكنتش عارف ليه.. مالقتش حد من العيال اللي في الفصل أسأله خايف منهم.. وفي يوم سألت ماما وماردتش وبابا كمان ماردش سألت أخويا نور وقالي إحنا مش زيهم إحنا مطلقين.. ماعرفتش ألاقي معنى لكلمة مطلقين في الكتب اللي عند بابا.. وخفت أسأله ليضربني و يضرب نور.. سألت أستاذي وقالي إن المطلقين اتنين عاشوا مع بعض وبعد كده سابوا بعض، مافهمتش يعني إيه قوي كل اللي فهمته إن بابا وماما في يوم كانوا عايشين مع بعض ودلوقتي سابوا بعض.. بس ليه سابوا بعض وباقي الأبهات والأمهات مسابوش بعض.. أكتر حاجة زعلتني إن بابا ضرب ماما وشتمها، ضربها جامد قوي.. أنا خفت لتموت.. ليه بابا عمل كده؟ في حاجات كتير مش فاهمها وعايز أتكلم مع حد.. مش عارف أتكلم مع مين"

الدفتر الأصفر صفحة ١٠٩

* * *

(كوابيس)

" بقيت باترعب من فكرة النوم كل ما أنام أحلم بكوابيس.. مرة حلمت إن الكتب اللي باقرا فيها كلها وقعت عليا وخنقتني.. ومرة تانية إن بابا ضربني لحد ما قتلني.. ومرة حلمت بمريم إنها بتموت قدام عيني.. كل ما أنام أحلم بحد بيموت لدرجة إني ابتديت أفكر في الموت فعلا.. حاولت أهرب من النوم لكن ماقدرتش مهما مشيت في الأوضة أو غسلت وشي لازم في الآخر أنام ولازم أحلم بكوابيس.. بطلت أقول لبابا وماما على الكوابيس لأنهم مش هيهتموا وأنا مش عايزهم يهتموا.. مش عايز حد يهتم"

الدفتر الأخضر صفحة ١٩

* * *

(درس أول مرة)

" مهما كبرت مش هانسى اليوم ده.. النهاردة أول مرة أروح درس في سنتر دروس.. والناس كتار قوي.. بنات في منهم شكلهم حلو فكروني بمريم وفكروني إزاي سبتها.. اتوترت جدا من العدد ده ماكنتش عارف أتكلم مع حد وده الطبيعي.. كل ما اتسأل سؤال أحس إني هاقول حاجة هبلة.. في ناس دخلت مع صحابها وفي ناس دخلت لوحدها وخرجت مع صحاب جدد.. أنا الوحيد إلى دخل لوحده وخرج لوحده وقعد لوحده.. جنبي أربع كراسي مافيش واحد منهم حد فكر يقعد فيه.. الشيء الوحيد الإيجابي إن صاحب المعهد

صاحب بابا اسمه الشيخ أحمد أبو السيد.. وجودي وسط الناس بيوترني مش متخيل نفسي وأنا باتكلم مع حد أو حد بيكلمني من كتر ما أنا عايش لوحدي، ساعات باحس إن عمري ما هقدر أتعامل مع الناس.. ساعات باقبل كده وساعات تانية بكره نفسي وبافكر إني أتعامل مع الناس"

الدفتر الأبيض صفحة ٧٧

* * *

(أنا كرهت حياتي)

" أنا كرهت حياتي بكل اللي فيها عائلتي.. دايما كل شخص فيها لوحده أب عمره ما كلمني وسألني نفسك في إيه أو بتحب إيه.. ماشفتش منه حاجة غير الضرب والأذية.. أم مافكرتش إنها تحضنني وتحبني.. أنا ماعملتش حاجة غلط تزعلهم مني.. ليه بقي بيكرهوني؟ كرهم ليا بقى بيرعيني وبيكرهني في نفسي.. أما عن الناس اللي في الشارع فمايفرقوش حاجة عنهم.. نفس الكره نفس الحقد.. ساعات بحس إن عيلتي موجوعين وزعلانين زيي بالظبط مش عارف زعلهم ده سببه إيه؟ ولا بقيت عايز أعرف، مش عايز أعرف أي حاجة ولا أحس بأي حاجة.. بافكر أنتحر.. أنط من البلكونة، أشرب السم أو ممكن أقطع إديا.. ولكن قبل كده عايز أهرب من البيت.. لا ده مش بيت ده سجن معتقل مستشفى مجانين.. بافكر في الانتحار وأنا في السن ده.. واضح إني مش

مكتوبلي أعيش طفولتي.. انتحاري أفضل حل، هاريح عيلتي مني وأنا هاستريح منهم".

الكشكول البرتقالي صفحة ١٨٥

❋ ❋ ❋

(أنا وحيد)

" الوحدة هي إنك تجلس وسط سبعة مليار ونصف ولا تجد فيهم من يسألك مالك.. تلك الكلمة عظيمة تريح أشخاصًا وتمسح دموعًا وتعلن عن حب بريء صادق.. فقط عندما تأتي من الشخص المناسب.. لا أعلم الخطأ مني أم من العالم، لا أعلم إذا كنت خفيًا أو مقرفا أو وجهي منفر، لا أعلم إذا كنت حيًا أو ميتًا ولا أعلم إذا كنت أريد الحياة بعد الآن.. نحن معشر البشر اجتماعيون نعيش في جماعات، نضع نظامًا جماعيًا حتى نتمكن من الحياة، وأنا لا أستطيع مجاراة هذا النظام ولا حتى فهمه.. أريد أن أتكلم وأتكلم وأسأل عن هذا السواد الذي في قلبي ما منبعه، وعن أهلي وعن وحدتي وعن بكائي المتكرر وعن تفكيري في الانتحار والهروب من المنزل.. شخص واحد واحد فقط يحتويني ويسمع شكواي.. غير الورق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.. هل من مجيب؟ فلقد سئمت الانطواء"

الدفتر البني صفحة واحد

❋ ❋ ❋

(روان)

" كل يوم يشبه اليوم الذي يسبقه.. أفعل ما فعلته الليلة السابقة وما سأفعله غدًا وبعد غد لم يخطر في بالي أن يحدث شيء من القوة أن يغير حياتي ويقلبها رأسا على عقب، ولكنه حدث كما تكون المعجزة.. أنا أحببت.. ظننت أن هذا الإحساس غادر قلبي وهاجر مع ابتعادي عن مريم، لم أتخيل أن هناك شخصًا سينسيني مريم.. كان يجب أن أكتب ما أكتبه منذ أسبوع عندما رأيتها تسير على كورنيش البحر.. عندما أنستني البحر والرياضة والهواء النقي وحتى نفسي.. وقت ما كسرت كل قواعدي وحاولت الخروج من قوقعتي لأول مرة ولكن في هذه اللحظة لم أكن أفهم طبيعة شعوري، أما الآن فقد فهمت، إنه الحب يا سادة، الإحساس الوحيد النقي، الشيء الوحيد الذي يربط البشر بالحياة.. أنا فعلا لا أريد مصادقة أحد ولا محادثة أحد.. أنا أريد روان، فقط روان، وفي حالة عدم حصولي عليها فلا أظن أن وجودي هنا سيكون ذا فائدة.. لا أهتم بأحد إلا روان، ولا أحد يهتم بي، فلن أتمسك بالحياة إلا عند حصولي عليها.. وأقسم أنها ستكفيني عن الجميع"

* * *

انتهى هيثم من آخر مقالة من السبع مقالات التي أوصى بها شهاب، الصورة أوضح الآن.. أحس أن شهاب كان ضعيفًا وهشًا ومدمرًا لاقى رفضًا من كل من أحبه.. انتحار شهاب ليس مرضًا بل هو عرض لمرض..

- دكتور هيثم.

جاء الصوت من خلفه فنظر للمنادي، رجل أربعيني بشوش مبتسم علامة صلاة على جبهته، ذقن صغيرة ومهذبة جلباب أبيض.. لا ريب أن هذا والده.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

تقدم محمد وجلس على سرير شهاب وقال:

- فرحت جدا لما عرفت إنك هنا.
- الحمد لله إن زيارتي ماتقلتش عليكم.
- لا أبدًا والله.

قال هيثم في نفسه: هذه ليست مظاهر، هذه طباع هذا الرجل إن كان والده فيجب عليّ أن أعيد النظر في أسباب الانتحار.

- أنا والد شهاب.. الله يرحمه.
- الله يرحمه.. اتشرفنا

قال هيثم محدثا نفسه: لماذا هذا الرجل مسالم هكذا وليس كما في الورق؟

ضحك والد شهاب وقال:

- قريت الورق مش كده؟
- اه قريته.
- تعالى اقعد نتكلم شوية

جلس بجانبه:

- اسأل أنا عارف إنك عايز تسأل

فقال هيثم مستغربًا بعض الأشياء:

- اللي قريته في الورق واللي فهمته إنك ضربت مراتك وطلقتها وماكنتش مهتم بحد من ولادك، وإن ابنك كان بيعتبرك شيطان.. الكلام ده صح ولا شهاب بيتوهم؟

الابتسامة اللطيفة لا تفارق وجه الوالد:

- لأ ماكانش بيتوهم، كل حاجة كتبها حقيقة وحصلت.. أنا اللي كنت باتوهم، عايش في وهم إني فاهم صح وأنا مش فاهم أي حاجة.. ضربت أمه وضربته هو وأخوه ماكانش حد فارق معايا، عارف لو سألتني نفس السؤال من أسبوع كان الرد هيكون بشتيمة وصوت عالي وخناق مش بصوت هادي وابتسامة.
- ايه اللي غيرك؟

- شهاب.. موته غيرني، فوقت لما مات حسيت بالذنب وإن أنا السبب.. وأنا فعلا السبب.. لو في حد يهتحاكم على انتحار شهاب هيكون أنا.

نظر الدكتور إلى ساعته، عقاربها تشير إلى الرابعة.. رغم أنه يريد للمحادثة أن تطول لكن زوجته تنتظره:

- باش مهندس تسمحلي آخد المذكرات معايا القاهرة أكمل قرايتها؟
- مفيش مشكلة.
- أستأذنك سعدت جدا إني شوفتك.
- إيه ده إحنا مالحقناش نتكلم.
- والله لو كان بإيدي لكنت قعدت معاك أكتر بكتير... عشان متأخرش على مراتي.

تذكر هيثم فجأة ملامح الحزن التي سمت على وجه نور عندما سأله عن والده ووالدته، كأنه سأله عن أشخاص ميتين، ولكن هاهو والده يقف أمامه ويتكلم..

إذن هناك خطب ما حدث لوالدته.

- متآخذنيش يا باشمهندس أنا لما سألت ابنك عنك وعن والدته زعل كده وكش.. أنا جه في دماغي إنكم لا قدر الله حصلكم حاجة.. وحضرتك الحمد لله واقف معايا.

لأول مرة منذ أن رآه تنسحب الابتسامة من وجهه.. جلس الوالد مرة أخرى وتلكم بحزن ظاهر:

- الحاجة دلوقتي موجودة في العباسية.. الخبر كان عليها تقيل قوي ماقدرتش تستحمله.. ابتدت تقول كلام غريب محدش فاهمه.. قلنا مصدومة معلش.. الموضوع طول.. أهو الحمد لله.

انعقد لسان الدكتور هيثم لا يدري ما يجب أن يقوله، فقط اكتفي بمتابعة تلك الدموع التي تحاول الخروج من عين محمد عبد الله من عين أطهر القلوب التي رآها في حياته.

❊ ❊ ❊

١٧

في داخل إحدى غرف المشفى تستلقي روان ورأسها محاط بشاش طبي وعلى كرسي بقبالتها تجلس فتاة أخرى طويلة وترتدي حجابًا أخضر اللون وتضم حقيبة ظهرها إلى صدرها.. تقول تلك الفتاة:

- في إيه اللي حصل يا بنتي؟ ماتقلقينيش عليكي أكتر من كده.
- الحمد لله.

تقول الفتاة باهتمام وحب حقيقيين:

- إيه اللي حصل يا حبيبتي مالك؟

سؤال لا تعرف كيف تجيب عنه روان.. تتذكر أفعالها الليلة الماضية.. ولكن لا تدري كيف ستسرد لتلك الفتاة ما حدث.. تقول الفتاة:

- مش عايزة تحكي؟

تنهدت روان بعمق.. تريد أن تحكي.. ومن منا لا يريد أن يحكي ويزيل حمول الهموم والذكريات عن كاهليه.. وخصوصًا إذا كان المتلقي قلبا طاهرًا كقلب تلك الفتاة.. تقرر روان أخير الاعتراف:

- سندس.. تعرفي الواد اللي انتحر؟
- عارفاه.

فقصت عليها قصصها من بداية اعترافه بحبه لها في اليوم الأسود المحفور في ذاكرتها وردها القاسي وانتحاره الذي دوى في الرأي العام، وانفجارها وتمردها الذي انتهى بها في المستشفى برأس يقطر دمًا ولا تقدر على الرجوع إلى منزلها أو حتى دفع حساب المشفى.. وعينا سندس تتسعان أو تضيقان حسب القصة.. قالت في نفسها: " روان التي اتصلت بي في يوم من الأيام تقول إنها شاهدت مسرحية تسمى العيال كبرت وتنصحني برؤيتها.. وهذا حدث منذ سنة.. والآن تهرب من المنزل وتتمرد على أهلها وهناك شخص ينتحر بعد ما أحبها"

دهشة سندس واستغرابها يشعران روان بالنشوة وأنها على الطريق السليم.. قالت سندس وهي تشير إلى شعر روان المتدلي على كتفيها:

- عشان كده مش لابسة حجاب؟
- ابتسمت روان ابتسامة ساذجة:
- بالظبط.. أنا متمردة.
- متمردة إيه وزفت إيه الله يخرب بيتك.

وكأن الجملة إهانة شخصية وليست اعتراضًا عابرًا.

- وكمان انتي إزاي تسيبي أهلك.. انت كده بنت عاقة.
- بنت عاقة حاجة وحشة.. بس الأوحش أب قاسي.
- ما كلنا أبونا ضربنا وزعقلنا.. سيبنا البيت ومشينا مثلا؟؟

ترى روان أن لا أحد مثل أبيها ولا أحد عانى معاناتها وأن سندس إن جربت يومًا واحدًا من حياتها فستهرب من البيت بعد أن تحرقه بكل من فيه:

- ماحدش اتعمل فيه زي ما اتعمل فيا.. ومش معنى إنكم ساكتين وبهايم أبقى زيكم.
- آه إحنا بهايم وحضرتك فاهمة كل حاجة في كل حتة.
- أنا حرة.
- من إمتي الحرية في قلع الحجاب؟

لم تزد إحداهما بكلمة، ونظرت روان بجانبها كي تبتعد عن ملاقاة عيني سندس.. وسندس تسأل نفسها: من هي تلك التي تجلس أمامي.. مستحيل أن تكون روان التي أعرفها، إنها فتاة أخرى.. تقول روان بعد فترة صمت طويلة:

- عاوزاكي تساعديني يا سندس.
- أساعدك ازاي؟
- قولتيلي قبل كده إن عندك أوضة فوق السطح.
- ايوه بس ديه ماحدش بيستخدمها.
- عشان كده محتاجاها.
- محتاجاها؟
- آه محتاجاها.. موافقة ؟

ليست من عادة سندس أن ترفض طلبًا للمساعدة، قلبها أنقى من هذا وليست عادة روان أن تطلب من أحد طلبًا.

قلبها أقسى من هذا.. الموقف صعب على كلتيهما.. تقول سندس:

- الصراحة أنا شايفة اللي عملتيه غلط بس موافقة.

ابتسمت روان ابتسامة خافتة:

- شكرا يا سندس.
- قولتلك كذا مرة مابحبش الكلمة دي.
- سندس مش قادرة أتكلم مصدعة شوية.

اقتربت منها سندس وقبلتها على وجنتيها.. ابتسمت روان بسعادة لم تشعر بها منذ زمن:

- انت زي أختي يا روان وعمري ما هتأخر ثانية إني أساعدك.
- عارفة يا سندس أنا ساعات باحس إنك أمي الحقيقة.

تشفق سندس على روان كثيرًا..

هي أكثر شخص يعرف معاناتها مع أهلها وتعرف أيضا اشتياقها لحنان الأم الذي فقدته بشكل يائس في سنين الطفولة.

- هجيلك بكرى إن شاء الله.

وفي الخارج تحدثت سندس مع الدكتور، طمأنها بقوله إن الإصابة لم تصل إلى المخ والنزيف أوقف بنجاح..

تحتاج فقط يومًا من المتابعة داخل المستشفى وغدًا ستخرج معها.. أسعدها كلامه جدًا وطمأنها على أختها.. فدفعت ال٥٠٠ جنيه تكلفة العملية برضى تام.

❊ ❊ ❊

- أنا عندي فكرة هتخلصنا من ابن عمها.
- إيه هي؟

رفعت والدة روان سماعة الهاتف وولولت متباكية:

- يا لهوي يا لهوي.

لترد عليها زوجة عم روان مفزوعة:

- في إيه مالك؟
- روان مش لاقيينها.
- نعم؟
- مش لاقيينها.
- استهدي بالله بس وهنلاقيها.

وضعت أم روان سماعة الهاتف.. نظرت إلى العائلة المترقبة نتيجة المكالمة:

- قالت إيه؟
- هي لحقت تتكلم؟

بعد ثوان أتى رجل يرتدي ملابس غير متناسقة وشعره مهمل كان المشط لا يمر به، أنفه طويل كمنقار طائر ومعه والدته ووالده.. قال الرجل بصوت أجش: في إيه يا ستي؟

اصطنع كل من في المنزل البكاء والألم.. وبالطبع أخفوا محمد في الحمام:

- البت راحت يا ابني.
- صلي على النبي وهنلاقيها.
- عليه الصلاة والسلام.
- بلغتم القسم؟
- بلغنا والله.
- إن شاء الله هترجع.

❊ ❊ ❊

في صباح اليوم التالي أزيل من رأس روان الشاش الطبي وأجريت أشعة وفحص لرأسها، وبعد هذا سمح الطبيب لها بالخروج وكان من ينتظرها بالخارج بكل إخلاص هي صديقتها سندس.. أعطتها أيضا ملابس من ملابسها عوضًا عن تلك الملابس التي أتت بها إلى المشفى.. فكانت ملابس روان متسخة.. أخبرتها روان أنها أحضرت ملابس في حقيبة ظهر ولكن على ما يبدو أنها وبسبب إصابة رأسها

نسيتها على الرصيف وشخص ما سرقها.. أمسكت سندس يد روان بود وخرجتا معًا من المشفى.. هذه الطيبة المعتادة من سندس تحرجها في كل مرة تساعدها فيها وتحرجها زيادة هذه المرة.. فهي لم تساعدها فحسب هذه المرة بل هي أنقذتها.. تريد أن تكسر حاجز الإحراج فقالت:

- هاجمع الفلوس وهاردلك إلى دفعتيه النهارده.

قالت سندس وكأنها لم تسمع ما قالته روان:

- هنروح دلوقتي للأوضة مع بعض.. أكيد عايزة تاكلي.. ماما عاملة ملوخية هتحبيها جدًا.. ماما ملكة الملوخية.. وأي حاجة نفسك تعمليها هساعدك فيها.

كم تتمني روان أن ترى قلبها كيف يعطف وعقلها كيف يفكر.. كيف يمكن لشخص واحد أن يحتوي كل من يعرفهم، يستمع إلى مشاكلهم ويشاطرهم أحزانهم.. ابتسامتها الراضية على شفتيها الرقيقتين كيف تفعلها؟ كيف ترمي الورقة البيضاء في الحبر الأسود ولا تتسخ؟ سندس ستظل لغزًا ولكنها لغز طيب.. تسكن سندس في منطقة خورشيد وتلك كانت معلومة جديدة بالنسبة لروان.. فرغم صداقتهما التي تخطت الأربع سنوات إلا أنها لا تدري أي شيء تقريبًا عن حياة سندس الشخصية إلا القليل، ومن هذا القليل الغرفة فوق السطح.

جامع كبير يصلي صلاة العصر، وفوق الجامع جمعية خيرية تعلن عن أنشطتها والأرض ملأى بالطين من شتاء ليلة البارحة.. عمائر متفاوتة الأحجام من بين صغيرة لا تتعدى الدورين وأخرى تصل إلى ١٥ دورًا.. من طوب أحمر بعضها والبعض تعدى تلك المرحلة، وتحت معظم العمائر أكشاك حلوى أو بقالة، وما يخلو منها يوضع مكانه أطفال يلعبون البلي ويجرون هنا وهناك... اشترت سندس من السوق قرب المنزل متطلبات البيت وحلويات وأطعمة معلبة.. قبل أن تدخل هي وروان إلى العمارة التي تسكن فيها سندس.. كانت من العمائر الطويلة.. قالت روان بصوت هامس:

- لو حد سألني انت هنا ليه أرد إزاي؟

ردت سندس ضاحكة وهي تستدعي المصعد:

- ماتقلقيش.

صعدت الاثنتان إلى السطح.. المدخل إلى السطح بدون باب.. عجل وخردوات قرب المدخل.. ضوء الشمس المنعش وأطباق استقبال تملأ السطح، الأرض مليئة بالأتربة.. المنظر الخارجي على منطقة خورشيد بالكامل.. المحلات، العمائر، الأطفال... والغرفة مغطاة بالسراميك ولها باب خشبي.. رغم شكلها السيء اسعدت روان برؤيتها وقالت بسعادة بالغة:

- هي دي؟

قالت سندس بإحراج من شكل الغرفة:

- اه هي.

وقفت روان أمام الغرفة ولمست كل قطعة بلاط عليها.. أخرجت سندس المفاتيح من جيبها وفتحت الباب وروان بجانبها تقفز من السعادة.. قالت روان عند فتح الغرفة:

- تا تا تا.

غرفة صغيرة ومكتبة صغيرة بها بعض الكتب الدينية والروايات والمجلات.. وبجانب الباب أحذية وشباشب قديمة لم يستعملها أحد منذ فترة طويلة.. سرير كبير ولكن متهالك في يمين الغرفة وتلفاز يبدو أنه لا يعمل.. وغرفة متسخة للحمام وغرفة ضيقة للغاية للمطبخ بها بوتجاز ووابور وبعض أواني الطبخ.. تفرست روان كل شيء في الغرفة بسعادة وسندس تشاهدها بشفقة من سعادتها.. شيء غريب بعد أن كانت تعيش في مكان أفضل من هذا مع أهل وطعام وشراب بأمان تسعد بغرفة صغيرة فوق سطوح منزل عشوائي ولا تدري كيف لها أن تأكل غدًا وأتت إليها بعد أن أنهت فترة علاجها من شرخ جمجمتها عن طريق والدتها.. قالت سندس: بس بقى إحنا هنروق المكان وناكل مع بعض.

هزت روان رأسها موافقة.. أحضرت سندس مكنسة وجاروفًا وهموا بتنظيف الغرفة.. عقد من الزمن لم تنظف فيه هذه الغرفة.. الأتربة في كل مكان على الكتب والتلفاز والسرير والأرض اكتشفتا خلال تنظيفهما أن البوتجاز والتلفاز لا يعملان، أما غير ذلك

فالغرفة قابلة للعيش فيها.. بعد ساعتين من التنظيف أنهكت الفتاتان واستلقيتا على السرير، منظرهما كأنهما خارجتان من الحرب.. قالت سندس: لما نستريح عايزة أكلمك.

- لما بقى.

استلقيتا على السرير لا تفعلان شيئًا سوى التعرق.. بعد نصف ساعة قالت سندس:

- هاجيب مية وشيبسي عشان نرغي شوية.

ثم أتت حاملة زجاجة ماء كبيرة وكوبين من البلاستيك وطبق به شيبسي.. جلست بجانبها القرفصاء وأسندت روان ظهرها للحائط.. صبت سندس الماء في كوب وناولته لروان التي أنهته من مرة واحدة.. ثم قالت سندس:

- هتقدري تعيشي هنا؟
- أكيد هاقدر أي مكان بعيد عن أهلي جنة.
- متمردة وهربانة والشغل ده.
- انتي فاكرة موضوع الهرب سهل وبسيط؟
- يا ستي معاكي إنك صح وإن هروبك كان أفضل حل وكمان دول كانوا هيجوزوكي لابن عمك.. بس بقى موضوع الحجاب ده مش فاهماه، ليه قلعتيه؟ حرام عليكي ليه اتمردتي عليه؟

وشددت على كلمة اتمردتي..

- لـ

ا شهاب مات أنا فوقت ولما فوقت قلعت الحجاب.

- فوقتي إيه؟ انت لا مؤاخذة لا فتحتي كتاب وكل الأفكار اللي بتدعو لخلع الحجاب لو قولتهالك مش هتعرفيها.
- هو أنا لازم أقرا عشان أفوق من جهل واضح؟
- ايه الجهل في الحجاب؟ ايه الجهل في العفة؟
- انتوا مش فاهمين العفة، العفة مش في الحجاب العفة في القلب.
- على كده ننزل الشارع متوسخين ونقول النضافة في القلب؟
- مفهوم الوساخة نسبي ومفهوم الاحترام بردو نسبي.
- مفيش نسبية في مفاهيم ثابتة.
- غلط، أساسًا مفيش مفاهيم ثابتة.. حتى طولك لو بعدت عنك شوية هحس إنك أقصر.
- ده بيعتمد على زاوية رؤيتك.
- بالضبط واحنا مجتمع بيشوف المرأة سلعة.
- إحنا لما نعفها وندارِيها زي المجوهرات بنخليها سلعة؟
- المرأة مش حلوى ولا مجوهرات، والراجل مش دبان إلا لو أصر على كده، المرأة مش شيء يتحكم بيه.. المرأة كيان

حر مستقل من حقه يغلط عشان يتعلم زيه زي الولد بالظبط.

رن هاتف سندس.. والدتها هي المتصلة فاعتذرت أنها يجب أن تذهب الآن:

- أنا آسفة يا روان شكل ماما وصلت البيت ومالقتنيش، لازم أنزل حالا وأول ما يطلبوا مني أشتري حاجة هوصللك الأكل لحد عندك.. وبكرة أنا نازلة تبع جمعية خيرية.. إيه رأيك تنزلي معانا؟
- اعمل ايه؟
- تتطوعي وتفكي عن نفسك شوية.. وكمان بعدها ندور على شغل.. إيه رأيك؟
- موافقة.
- تمام، باي.

وبالفعل بعد حوالي ساعة طرق بابها وكانت سندس حاملة طعامًا سلمته لروان سريعًا وانصرفت.. وفي الليل لم تعتد روان المكان بعد لتنام بهدوء فتقلبت كثيرًا وتمشت في السطح تحت النجوم والسحب.. وفي حوالي الثانية مساء نامت نومًا هنيئا.

❊ ❊ ❊

١٨

في صباح اليوم التالي أيقظتها يد سندس وهي تقول بصوت منخفض: اصحي يا بنت .. مش عايزة أتأخر.

أعطت سندس روان ملابس من ملابسها بعد أن استيقظت روان عن مضض أفاقت وتجملت وفي الساعة التاسعة خرجت الاثنتان من المنزل.. تدري روان عن هوس سندس بالعمل التطوعي الناجم عن حبها العميق للغير.. وسمعت منها أنها أصبحت قائدة لفريق في مشروع يهدف لمحو الأمية.. خيل لعيني روان النظرات الصارمة وإلقاء الأوامر واسم سندس يسبقه قائدة.. قالت روان:

- ممكن تقولي لي إحنا هنعمل ايه؟
- هندور على أميين ونقنعهم إنهم يتعلموا.
- وانتي هتعملي كده معاهم.
- اه.. هتفهمي كل حاجة اصبري.

وعند محطة مطافئ العوايد تقف فتاة لها هذا الوجه البيضاوي النحيل والأنف الغليظ واحدداب بسيط في الظهر ورجل يسامرها بابتسامة واسعة وعينين ضيقتين وكرش عظيم يعطيه منظرًا مهيبًا.. قالت سندس:

- السلام عليكم يا زياد.. السلام عليكم يا أسماء.. ايه الأخبار؟

- وعليكم السلام.. الحمد لله.
- اعرفكم بروان متطوعة جديدة معانا.

يقول زياد: السلام عليكم.

- وعليكم السلام.
- أول مرة مش كده؟
- اه أول مرة.
- بإذن الله هيعجبك التطوع.

لم تكن تلك البداية التي كانت تتوقعها من القائدة سندس.. أين الأوامر؟ أين التعليمات؟ قالت سندس: فين البقية؟

- لسه هييجوا.

وفي خلال نصف ساعة تحدثت روان مع زياد وأسماء وكل من أتى.. وكانت تتعمد أن يكون كلامها بشكل أكبر مع الأولاد لكسر القاعدة.. ولاحظت أن هنا القاعدة ليست موجودة من الأساس.. قالت سندس: نجمع في دايرة يا شباب.

فاصطف الاثنا عشر شخصا في نصف دائرة تتوسطها سندس.. وبدأت التكلم بصوت جهوري وهيئة قيادية انتظرتها روان الفترة السابقة بأكملها:

- في ناس كتير لسه ماجوش.. هنضطر نسيبهم ونبدأ.. إحنا لسه مخلصين مرحلة رفع الواقع الأسبوع إلى فات.. النهاردة هننزل فتح فصول في أربع مناطق شارع الترعة

والزوايدة وخورشيد والمراغي.. زياد وحسين وأسماء هيروحوا الزوايدة، إبراهيم ويوسف ودنيا خورشيد، أدهم وفاطمة وباسم المراغي، أنا وروان وخالد شارع الترعة.. الموضوع مش هيكون سهل لكن انتم بتعملوا كده عشان ربنا.. خدوا الملفات من إبراهيم.. ربنا يكون في عونكم لو احتاجتم حاجة نمرتي معاكم.

اتجهت كل المجموعات الأربع إلى مناطقهم.. ووقفت سندس وروان وخالد.. وهو شاب قصير ذقنه مدببة.. فهمت منه روان أنه يعمل مع الأفاعي والسحالي، وعرض عليها أن تأتي يومًا إلى محل عمله لرؤية تلك الحيونات الغريبة.. فراق لها الأمر.. توجست روان ريبة من أن تسأل سندس عن أن شيء، فبعد ما رأت سندس القائدة لم تعد تأمن سندس الصديقة.. قطعت سندس خوف روان عندما سألتها: عندك أي سؤال؟

لقد عادت سندس الصديقة الطيبة مرة أخرى.. لم تسألها أكثر سؤال تريد أن تسأله؛ وهو "ازاي اتحولتي للشخص ده؟".. كي لا تحرج نفسها وتحرج سندس أمام خالد، سألت بدلا منه:

- هنروّح إمتى؟
- حوالي تلاتة كده.

فأضافت ضاحكة:

- انت لحقتي تزهئي؟

- لا خالص.

لم يتكلم أحد حتى وصلوا إلى شارع الترعة وولجوا من شارع صغير بجانبه جامع هو أكبر مبنى في المنطقة.. أنزلت سندس حقيبتها وأخرجت ثلاثة تيشرتات بدون ذراع وبسحاب عليها اسم وشعار الجمعية الخيرية وثلاث قلادات عليها شعار الجمعية ووزعتها عليهم.. وسارت يتبعها البقية.. المكان شعبي بدرجة أولى.. أطفال بملابس داخلية بالية يجرون حافين بأقدام اسودت من التراب، ونسوة يلبسن الأسود يتسامرن على الرصيف ومحلات يجلس في مقدمتها عجائز أهلك الزمن وجوههم، ولكن لم ولن يقدر على مسح ابتسامتهم.. ساروا دقائق حتى وصلوا إلى مقر للجمعية أمامه مكان مكتظ بالأطفال وشخص لا يرى أحد وجهه ولكن صوته يسمع يقول:

- أ.. ارنب ب.. بطة.

ويردد الأطفال وراءه ما يقوله.. سألت روان:

- هنقعد هنا؟

- ايوه.

ونادى خالد بعلو صوته:

- أم أحمد أم أحمد.

فخرجت امرأة سمينة تعقد رأسها بإيشارب أخضر:

- المفتاح لو سمحتي.

فألقت سلسلة مفاتيح وقعت على الأرض قبل أن يمسكها ويفتح بها الباب المقفل أمامهم، وفي الداخل.. غرفة مغطاة بورق حائط وردي وأزرق وكراسي موضوعة فوق بعضها وطاولة موضوع عليها قصص للأطفال وكتب لتعليم الحروف، جلست سندس على أحد الكراسي وسحب خالد كرسيين أعطى أحدهما لروان فشكرته وجلست على الكرسي وجلس هو على الكرسي الآخر.. قالت سندس موضحة خطة اليوم:

- دلوقتي هنجيب فطار ونبتدي نبلغ الأميين بالمعاد، قشطة؟

- قشطة.

روان جائعة جدا ولكن لم ترد استعجال أحد بالإتيان بالطعام سريعا، فقط تريد أن يسير كل شيء كما تخطط سندس.. وفي الحال وبدون أن تتكلم روان قال سندس لروان: تاكلي إيه؟

- أي حاجة.

قالت لخالد: روح جبلنا فول وفلافل.

قالت روان في نفسها:

- فول وفلافل.. لا يهم أنا جائعة حقا.

هم خالد خارجًا بعدها ساد الصمت فترة طويلة.. فقالت سندس لتقطع الصمت: ايه الأخبار.

- الحمد لله.

أحست روان أن تلك فرصة جيدة لسؤال سندس الصديقة عن سندس القائدة:

- أنا نظرتي ليكي اتغيرت النهاردة لما شوفتك بتتكلمي عند المطافي، حسيت فعلا إنك قائدة مش عارفة أوصلهالك ازاي.

فقالت سندس بغرور مصطنع مازحة:

- أنا قائدة، أومال انتي فاكرة ايه؟
- مش قصدي، انتي قائدة وأحسن قائدة أنا بس أقصد ..

سكتت ثواني ثم أردفت بحزن وحرج:

- حسيت لدقايق إن سندس الصديقة الطيبة مشت وجت مكانها واحدة جدية وقاسية.. خفت قوي خفت ألا سندس تمشي وماترجعش وافضل كده من غير ظهر.

لمست سندس ما في كلامها من معاني ضعف واحتياج فقالت:

- ايه إلى بتقوليه ده؟ انتي أختي وحبيبتي هافضل طيبة معاكي على طول.

ابتسمت روان سعيدة:

- بجد؟
- اه والله

احمر وجه روان قبل أن تقول: ممكن حضن؟

قالت سندس بحنان: أكيد.

واحتضنتها وأغمضتا عينيهما.. هنا فهمت روان ماهية الصداقة، فهمت أن الصداقة ليست مكالمات هاتفية أو رسائل على الفيس بوك.. الصداقة هي قلبان أصبحا قلبًا واحدًا، الصديق شخص يعطيك حضنه وقت حزنك ويعاتبك عند الخطأ وإن نجحت في شيء ما يقضي الليل ساهرًا يحتفل، وروان تتيقن أن سندس هي أيقونة حية للصداقة.. أنهت سندس الحضن وقرصت على خد روان مداعبة:

- والله لو قولتي الكلام ده تاني هموتك.

ضحكت روان فأضافت سندس:

- وبعدين مفيش فرق بين سندس الصديقة وسندس القائدة أساسًا مابتتحسبش هي سندس واحدة بس.. لكن لو أنا باكلم الفرقة بطيبة زيادة هيستهبلوني ولو اتعاملت مع اصحابي بصرامة هيكرهوني كل موقف وليه طريقته

هدأت كلمات سندس روان وأدركت أن سندس الطيبة لا تختفي فقط تذهب قليلا وتعود.. أتى خالد بالسندوتشات الساخنة تقسم روان أن ما تأكله هي ألذ وجبة مرت عليها، ألذ حتى من اللحم ومن الشكولاتة، ووجود هؤلاء الأصدقاء حولها يجعلها ألذ وألذ.. بعد الطعام هموا لتجميع الأميين.. جلس خالد في المقر وذهبت سندس مع روان لتجميع الأميين من المنازل ومن الشوارع.. بعض المنازل لم

تفتح رغم تأكدهم من وجود عائلة في المنزل والبعض الآخر كان مرحًا ومتعاونا.. وفي خلال ساعة جمعوا ٧ أميين.. كما قالت سندس "الموضوع صعب ولكن أنتم بتعملوا كده لوجه الله" وتضيف روان على كلامها لوجه الله ولوجه هذا الفلاح البسيط المبتسم أجمل ابتسامة على مر التاريخ، ابتسامة الراضي المبتهج وضحكة فتاة صغيرة داعبتها روان أثناء البحث فأنستها التعب بل الدنيا بمن فيها.. وبعد ساعة ذهبت الفتاتان للمقر وأبلغتا خالد بالعدد الذي جمعتاه وأخبرهما هو بأن هناك امرأتين أتتا وسجلتا أسامهما.. وعند صلاة العصر ذهب خالد للصلاة في المسجد، وصلت الفتاتان في المقر وبعد الصلاة بدأ المدرس في الدرس.. اتصلت سندس بالبقية ليعلموها عن جديدهم والنتائج كانت مفرحة.. ذهب خالد إلى منزله ومشت سندس مع روان، جففت سندس عرقها بمنديل وقالت لروان بحماس:

- ندخل على أهم حاجة النهاردة.

قالت روان منهكة:

- الشغل؟؟

- الله ينور عليكي.

اذعنت روان لرغبة سندس ورغبة ظروف هربها.. قالت سندس بحماس مضاعف:

- أنا عارفة مكان كويس ممكن تشتغلي فيه.

استمعت لها روان باهتمام:

- صيدلية شغال فيها ست وبنتها يعني مافهياش رجالة، الشغل من الصبح ل باليل يعني دوام كامل والمبلغ ٣٠٠٠ جنيه في الشهر دول يكفوكي وزيادة.

انتقلت شعلة الحماس إلى صدر روان أيضًا.. فقالت وهي تمسك بذراع سندس وتهزه سعيدة وقد زال الإنهاك من جسدها:

- هتجنن.
- انت مجنونة أصلا يا حبيبتي.
- فين المكان؟
- هنا في شارع الترعة يعني بجنيه واحد مواصلات من البيت.
- ايه ده أنا كنت فاكراه هيبقي في خورشيد جنب البيت.
- ماينفعش تشتغلي جنب البيت عشان لو اشتغلتي جنب البيت ممكن تتعرفي والموضوع ده هيسببلنا إحنا الاتنين مشاكل وعلى فكرة إحنا وصلنا لمكان الشغل.

وأشارت سندس إلى صيدلية صغيرة الحجم فوقها لافتة مكتوب عليها صيدلية الدكتور أمل.. تفاجأت روان وقالت:

- هي دي؟
- اه هي يلا بينا.

ومشت إلى الصيدلية ولكن روان سحبتها وقالت بتوتر:

- لا لا لا استني.
- في ايه؟
- أنا خائفة.
- من ايه؟
- مش عارفة.

قالت سندس بصبر فارغ:

- بقولك إيه أنا تعبانة مش هقدر أطبطب عليكي.

صدمتها ردة فعلها وجرحتها.. فنظرت إليها نظرة مصدومة.. أحست سندس بالذنب فمسحت على شعر روان وقالت متأسفة:

- أنا آسفة يا حبيبتي أنا بس تعبانة شوية وانت عارفة إنك لازم تشتغلي.

وضمت على يد روان بود ثم أكملت:

- لازم تشتغلي يا حبيبتي.

سحبت روان نفسًا عميقا وأخرجته ببطء ثم قالت بعد هذا بعزم:

- يلا بينا.

امرأة خمسينية ترتدي فستانًا أزرق من قطعتين ولا يوجد مكان في وجهها إلا وأصابته عمليات التجميل.. سألتها روان بتوتر وتخبط:

- في شغل عند حضرتك؟

نظرة فارغة وصوت هادئ وعميق:

- ايوه عايزة تشتغلي معانا؟

- إن شاء الله.

فقالت المرأة كشريط راديو لن يتوقف إلا عند وصوله للنهاية:

- الشغل من الصبح ل بليل المرتب ٣٠٠٠ جنيه هتوصلي الطلبات للبيوت القريبة وهتمسحي المكان وتروقيه وترتبي الأدوية.

أخفت روان بجهد بالغ فرحتها ورغبتها العارمة في الرقص كي لا تظهر كالبلهاء:

- موافقة.

فأكملت المرأة الشريط:

- بكرة الساعة ٨ تيجي على هنا بنتي مي هتكون موجودة وهتفهمك الشغل أي سؤال؟

- اه بالنسبة للأجازات هتب..

وقبل أن تنهي روان كلامها قالت المرأة:

- الجمعة.

لم تزد روان كلامًا مع تلك المرأة:

- شكرا بكرة هاجي.

وحتى لم ترد المرأة السلام.. نظرت روان لسندس وهي تخرج فوجدتها تكتم الضحكة حتى أصبح شكلها غريبًا.. فأثارت رغبة عند روان في الضحك فضحكت وضحكت سندس أيضا حتى دمعت عيناهما.. قالت سندس مقهقهة:

- مين الولية دي؟
- أنا عارفة يا اختي انت إلى جايباها.
- والله ما أعرف إنها كده.
- مش مشكلة هتعود عليها.

دخلتا إلى المنزل وفي غرفة روان كانتا تتحدثان وتشربان الشاي.. قالت سندس بإشفاق وفضول:

- مش حاسة بحنين لحياتك اللي فاتت؟
- لا ولا هاحس، أنا فرحانة جدًا إني استقريت هنا بعيد عنهم هاعيش حياتي زي ما دماغي تاخدني، هاتعلم كل حاجة وكل طريقة أجيب بيها فلوس وهاحاول أكمل تطوع معاكم وهسيب نفسي أحب وأعيش الوقت اللي فات ماكانش حياة دي كانت غيبوبة.

١٩

في استديو تصوير يجلس الدكتور هيثم مرتديًا بدلة سوداء بقميص أبيض وربطة عنق حمراء وأمامه يجلس مذيع يمسك ورقًا عليه اسم البرنامج.. وجاء صوت من خلف الكاميرات:

- الهواء بعد خمس ثوان يا أساتذة.

عدل هيثم جلسته وجفف نقط العرق القليلة على جبينه العريض.. وابتسم المذيع ابتسامة منافقة تدرّب عليها كثير حتى يصل إلى شهرته هذه وقال:

- أعزائي المشاهدين أهلا بكم في حلقة جديدة من حوالي أسبوع انتشر فيديو على مواقع التواصل الاجتماعي للطفل شهاب محمد عبد الله وهو بيرمي نفسه من فوق كوبري استانلي في الإسكندرية.. الإعلام اتكلم وبرامج تلفزيونية كبيرة غطت الموضوع.. لكن في الفترة دي ماظهرش شخص ممكن يحلل الواقعة نفسيًا بشكل متميز، معانا الدكتزر الكبير هيثم المصري.. أهلا بيك يا دكتور.

- أهلا بحضرتك وبكل السادة المشاهدين
- في البداية السؤال اللي حير ناس كتير.. ليه واحد في السن ده ينتحر؟

صمت الدكتور لثوان يستعد فيها للإجابة فقال:

- الانتحار مالوش سن معين يعني مينفعش تقول ده صغير على الاكتئاب لو واحد قابل في حياته مواقف سيئة بيحاول يدور على باب إيجابي جديد ساعات بقى الباب ده هو الآخر يتقفل فيدور على تالت يتقفل رابع الانتحار هو اللحظة إلى بيحس فيها الشخص إن خلاص مافيش أمل مافيش باب هيتفتح، اللحظة دي يكون فيها صغير ولا كبير ملوش علاقة.

يهز المذيع رأسه ويغير تعابير وجهه وقت ما تأتي الكاميرات باتجاهه باحترافية في النفاق:

- سؤال مهم تاني مين أكبر سبب في انتحار شهاب؟ التربية، المجتمع، مين بالظبط؟

قال بهدوء لازمه طيلة حياته:

- هاحكي قصة صغيرة كده.. كان في مدير في شركة مخنوق ومش طايق نفسه المدير طلب موظف في الشركة عشان يديله أوراق المفروض يخلصها وصل العامل المدير شخط فيه: انت لسه مخلصتش شغلك؟ أنا آسف، كل

مرة آسف آسف؟ اتنيل خد الورق ده وسلمه لرئيس قسم الصيانة.. أخد الورق وهو مضايق ورماه على مكتب رئيس قسم الصيانة، مدير القسم قاله: بالذوق طيب، قاله: بلا ذوق بلا قرف.. اتعاركوا مع بعض لحد ما على صوتهم وفي الآخر فصلوا ما بينهم.. وفي نص اليوم جه موظف صغير في قسم الصيانة لرئيس قسم الصيانة وقاله: أنا هامشي دلوقتي عشان أجيب ولادي من المدرسة، اتجنن عليه الرئيس وقاله: كل يوم بتجيب ولادك من المدرسة وتسيب الشغل؟ استغرب الراجل وقاله: ما أنا كل يوم باجيبهم، قاله الرئيس: أنا مش موافق، زعل جدا الموظف واضطر يدور على حد من صحابه عشان يرجع ولاده من المدرسة، وفي آخر اليوم روح البيت مخنوق ومضايق، ابنه رجع له بيجري عليه ويقوله: بص يا بابا الميس عملتلي ايه؟ من خنقته زق ابنه وقاله روح لماما، مشي الابن وهو زعلان وبيعيط جت القطة بتاعته تتمسح في رجله زي كل يوم فعشان هو زعلان ضربها برجله.. السؤال هنا: مين اللي ضرب القطة؟

يتابع الدكتور كلام هيثم باهتمام ليس اهتمام ما تطلبه الكاميرات بل دكتور هيثم نجح في أن يخطف تركيزه فأكمل الدكتور كلامه:

- الطفل فعليا هو اللي ضربها، لكن لكن مش هو المشكلة هو عرض لمشكلة، المشكلة الرئيسية إن المدير مابيعرفش يتعامل مع الموظفين وممكن يكون في أسباب أعلى من كده واحنا مانعرفهاش. الحكاية دي نفس إجابة شهاب، الموضوع تراكمي مش من شخص واحد.
- رأي حضرتك إيه في العائلة؟

مر على عيني هيثم أول مرة رأى فيها نور ووالده والمرات الأخرى التي قابلهما فيها وتذكر اليوم الذي رأى فيه والدة شهاب وهي في مستشفى المجانين ترتدي هذا الزي الأبيض وتكرر نفس الجملة على مدار اليوم: البت الوسخة خدت ابني.. فدمع نور ووالده وأصرا على أن يخرجا بسرعة.. قال الدكتور:

- العائلة سبب من دائرة الأسباب.. الطفل لحد ١٦ بيكون زي السفنجة، بيمتص كل حاجة، كل شيء من مجتمعه الصغير اللي هو العائلة وبيلقيه على المجتمع الكبير إلى هو العالم الخارجي، لو طفل شاف أبوه بيضرب أمه هيكبر عنده ميول شاذة ومختلفة، وطبعًا بتختلف الميول العدوانية حسب مقومات تانية ممكن يكون

الطفل عنده مشاكل عائلية لكن المدرسة بتخفف عنه أو أصدقاؤه بيخففوا عنه، وحتي لو كانت طفولته سيئة جدا ممكن لما يكبر يتلقى علاج نفسي والعلاج النفسي مش شرط يكون دكتور وشازلونج مش بالضرورة وعيادة العلاج النفسي ممكن يكون علاقة حب أو صداقة تنقذ المريض وفي حالة شهاب العائلة كانت مفككة مطلقين من قبل ولادته حاولوا يرجعوا لبعض كذا مرة فكانت النتيجة خناقة وقلة قيمة وعقدة زادت في عقد شهاب، وده غير معاملة الأب القاسية والأم الحزينة المتباكية وأخ غير مبالي بيه، نفسيته اتلخلعت وشاف عالمه الصغير جحيم بمعنى الكلمة، اترسخ في دماغه إن باقي البشر سيئين ومفيش فايدة منهم فاختصارًا العائلة سبب مهم ولكن مش الوحيد.

أكمل المذيع أسئلته:

- في شائعات إن شهاب كان بيحب بنت من الدراسة.. إيه تعليقك؟
- تعليق.. أولا الكلام ده صحيح مش شائعات، شهاب كان بيحب فتاة مافيش داعي لذكر اسمها، الحقيقة إن البنت دي ضحية هي الأخرى ضحية عادات وتقاليد عفنة؛ ماتكلميش الولاد وماتصاحبيش الولاد، البسي

عدل عشان عيون الولاد، اتربت على إنها مخلوق درجة تانية سعادته مربوطة بساعدة الباشا أبوها، وبعد كده هتكون سعادتها مرتبطة بسعادة الباشا الآخر جوزها.. هي بقى بتفكر إزاي وعايزة تعيش إزاي، الكلام ده يترمي في الزبالة ملوش لازمة.. فهموها إنه ماينفعش تكلم ولاد عشان عيب وعادتنا وتقاليدنا مابتسحمش بكده، انتي كده بنت أصول ومتربية.. طول حياتها مشت على نظام غصب عنها ولما شافها شهاب وحبها وده شيء طبيعي إن الإنسان يحب مش غلط وقالها كلمة بحبك.. (عيب، سافل، هيلعب بيكي.. اتجننت عليه وكلمت إدارة المعهد.. المفروض إدارة المعهد يكونوا ناس عاقلة وواحد بيحبك فيها إيه يعني، لا الإدارة كمان إدراة متخلفة ضربوه وهزأوه واتصلوا بأهله والأهل طبعًا زي ما هو متوقع ضرب وشتيمة في الولد الغلبان اللي مالوش ذنب غير إنه واحدة متشربة..

قاطع المذيع الدكتور لأنه أطال الكلام:

- دكتور.. بنسمع دايما إن منع الاختلاط عشان المجتمع وعشان مفيش حد يزني والمجتمع يكون سالم.

شرب الدكتور من الكوب أمامه وقال:

- إيه الغلط في اتنين بيحبوا بعض؟ تخيل معايا لما مجتمع يتقلب عشان اتنين بيحبوا بعض في منعزل عن العالم ولا أهل يحبسوا بنتهم عشان بتحب واد معاها في الكلية، ولا المدرسة شوف وصلنا الموضوع لإيه؟ الحب إحساس جميل جدا.. ليه نحوله لشر؟ ليه نبص عليه على إنه جريمة أو عيب أو حتى مصيبة؟

قاطعه المذيع للمرة الثانية:

- طيب.. معانا اتصال تليفوني.. روان من الإسكندرية نقول ألو.

صوت لفتاة تبكي:

- الو.. أنا روان من الإسكندرية، أنا يا دكتور اللي لا داعي لذكر اسمي، أنا المتخلفة اللي كل ذنب شهاب إنه حبها.

فوجئ هيثم من المكالمة، أما المذيع فيجب أن يستغل فرصة كهذه فقال:

- ثانية واحدة حضرتك اللي شهاب حبها؟
- آه وماتقاطعنيش لو سمحت، أنا عارفة إني مش أهم سبب خلى شهاب ينتحر، لكني كنت آخر أمل وآخر خيط وآخر باب كان بيحاول يتعلق بيه بالحياة.. أنا كنت مريضة ومجنونة ودلوقتي فوقت، لكن للأسف فوقت على حساب حياة شخص مالوش ذنب، وفاته

حركت عقلي المسروق، كأن حد ضربني وقاللي مش هتفوقي بقى وفوقت، أنا ضحية مجتمع وفي آلاف غيري، لأ ملايين.. حرفيًا ملايين مرضى نفسيين لازم يتعالجوا، أنا فوقت بس في غيري ماحدش عارف هيفوقوا إمتى، ده لو فاقوا أصلاً، الملايين دول هما إلى بيحرّموا الحب، هما اللي مش قادرين يشوفوا جمال الحياة، وجمال الحياة شبههم والموضوع مش هيخلص.. أنا عايزة أختم كلامي بطلب، مش عايزة حد يظلمني وبلاش الناس تقول إني سافلة وبدعو للفجور والسفالة، ولو حد قال كده أحب أقولك إنك في دايرة المرض النفسي لسه.. شكرًا.

وأقفلت المكالمة:

- آنسة روان.. آنسة روان.. قفلت المكالمة.

سأل المذيع الدكتور:

- إيه تعليقك على كلام روان؟

يكره الدكتور هذا النوع من الأسئلة المفاجئة، فهو لم يكوّن رأيًا بعد في المكالمة، فالأفضل أن يجيب إجابة معممة.. قال محافظًا على هدوئه بعد أن استعد ثواني للإجابة:

- فعلا في ملايين زي ما قالت اتربوا على الفكر ده، وده شيء سيء، لما يكون الأساس اللي في المجتمع بالشكل ده

يبقى أي حد هيتكلم كلام مخالف حتى لو كان صحيح وسليم هيتقال عليه مجنون أو مهرطق مهما كان كلامه سليم ومنطقي.

- طيب عشان وقت البرنامج تحب تقول إيه للمشاهدين؟

وجه الدكتور وجهه هذه المرة لإحدى الكاميرات ونظر إليها من خلف نظارته السميكة وقال بجدية:

- الواقعة دي ماينفعش تكون شو إعلامي وخلاص أو كلام وسط الناس وعلى الفيس وخلاص، اللي حصل لازم يكون دعوة لمراجعة العادات والتقاليد وأفكارنا بحيادية وبدون تعصب، نشوف هل ده صح وللا لأ، وأيضًا لازم نفهم قيمة العلاج النفسي وإنه مش عيب، وكلنا محتاجين دكتور نفسي يتابعنا ويتابع صحتنا النفسية ولازم يفهم كل أب وأم إن الإنجاب أبعد من لذة جنسية وعيل صغير يلعبوا معاه، مش عشان ٧ ثواني لذة يتعذب شخص ٧٠ سنة، إنتم بتجيبوا شخص جديد للكوكب من حقه يعيش في بيئة سليمة وهادية يكبر فيها مع عائلة بتحبه وقادرة تصرف عليه ماديًا، وآخر حاجة عايز أقول شهاب مش استثناء شهاب ممكن يكون أكتر شخص أخد شهرة لكنه مش الوحيد ولا الأول ولا الأخير، المنتحر اللي جاي ممكن يكون ابنك أوبنتك،

فالحقوهم وحبوهم وخافوا عليهم، احضنوهم بدل مايلقوش حضنكوا فيروحوا لحضن الاكتئاب.

أنهى الدكتور كلامه ونظر إلى المذيع الذي كان متأثرا بما قاله وهذا كان واضحًا من نظراته مهما حاول إخفاءها فهي واضحة.. يتمنى هيثم بشدة أن يكون كل من استمع للكلام تأثر نفس تأثره.. أنهى المذيع الحلقة:

- شكرا أعزائنا المشاهدين ونشكر جزيل الشكر دكتورنا المحترم هيثم المصري.. وإلى اللقاء

❊ ❊ ❊

تجلس روان مع سندس في غرفة روان تشاهدان نهاية البرنامج الذي ظهر فيه الدكتور هيثم وتكلمت روان فيه مكالمتها التي ستثير الجدل في الأيام القادمة.. تبكي روان بحرقة منذ بداية الحلقة إلى هذه اللحظة.. تتمنى أن تنسى كل شيء فقط تنسى لكي تستطيع أن تعيش، وسندس مشفقة عليها ولكن لا تدري ماذا ينبغي لها أن تفعل، لا تدري أتواسيها فتثقل عليها أم تتركها فلا تقف جانبها في الشدة.. أزالت روان دموعها بقميصها وقالت كلمات مقتضبة بصعوبة: سيبيني لوحدي يا سندس.

خافت سندس من أن يكون هذا البرنامج داس على جرحها الذي لم يشفَ بعد فزاد الطين بلة فجعلها تفكر في أن تلحق بشهاب،

فوقفت سندس لا تريد المغادرة ولا تدري ما يجب عليها أن تقوله.. فقالت روان:

- سندس بعد إذنك سيبيني لوحدي، وماتقلقيش عليا مفيش حاجة ممكن تزعلني لدرجة إني أنتحر.

لم تطمئن سندس من كلماتها، فيمكن لأي شخص أن يقول أي شيء ويفعل عكسه.. ولكن في النهاية انصاعت لرغبتها وتركتها.. تدعو الله أن يثبتها ويفرج همها.. رؤيتها متكومة في دائرة صغيرة على السرير أخافتها على ما يمكن أن تفعله بنفسها وأحزنها رؤيتها تعاني.. دعت الله من قلبها أن يفرج هم روان.

❊ ❊ ❊

٢٠

بعد سنة من الواقعة

مدرسة ثانوية في هولندا وقت خروج الطلاب.. يسير الطلاب في جماعات ويتكلمون ويضحكون، والمدرسون يسيرون بعضهم بجانبه طلاب يسألونه عن مادة معينة أو عن نشاط مدرسي أو عن شيء لا يتعلق بالدراسة.. تأتي كلوديا ترتدي جاكيت شتويًا ثقيلا أسود اللون وتغلقه حتى الرقبة وبنطال أزرق يتذيله حذاء شتوي ثقيل أبيض اللون وبجانبها ماتيلدا ترتدي تيشرت لفريق كرة قدم المدرسة ومعهما خمس من أصدقائهما، قالت كلوديا لماتيلدا بسعادة:

- لقد كنت رائعة في مباراة اليوم.. أنا فخورة بك.

قالت بغرور:

- أنا رائعة في كل المباريات.

أتى صوت لفتى معهما يرتدي نفس ما ترتديه ماتيلدا:

- ستأتون معنا للسنيما اليوم أليس كذلك؟

قالت كلوديا بانزعاج:

- فإن تلك المرة الألف التي أقسم لك فيها إننا سنذهب معك لا تقلق.

قال بإحراج:

- أنا آسف فأنا غبي قليلا.

قالت كلوديا للجميع:

- انتظروني دقيقة واحدة.

وتوجهت إلى درجها الخاص وفتحته لهم ثم قالت:

- حسنا اسبقوني.
- لا تتأخري.

صورة من صحيفة مصرية ورقها أصفر من قدمها، مكتوب عليها بالعربية.. "أصغر منتحر في مصر" معلقة على الحائط وأغراض شخصية كثيرة وكتب هولندية وصور لمارلي سايرس وصورة لشهاب في سلسلة مفاتيح.. أخذتها ونظرت إلى الصورة.. شعرت بيد توضع على كتفها جعلتها تنتفض.. إنها ماتيلدا تنظر لها بحنان وتقول:

- اليوم ذكرى وفاته صحيح؟

هزت رأسها.

- لم تنسِيه صحيح؟

هزت رأسها مرة أخرى.

- ولن تنسيه.. هذا طبيعي تمامًا ما دمتِ تستطيعين عيش حياتك بشكل طبيعي.. صلي له كثيرًا، سنتوجه للكنيسة اليوم لنصلي له.

نظرت كلوديا لها مبتسمة:

- حسنا.

وأدخلت السلسلة في جيبها:

- هيا بنا إلى السينما.

وأمسكتا يد بعضهما وسارتا إلى أصدقائهما المنتظرين عند البوابة.

❊ ❊ ❊

قال والد شهاب وهو يقفل أزرار القميص:

- هعشيك النهاردة في مطعم إنما إيه تاكل صوابعك وراه.

قال نور ولعابه يسيل متحمسًا للطعام:

- ايوه والنبي يا حاج مطاعمك وخروجاتك بقى.

- المهم انت عامل إيه في الرياضة اللي بتلعبها.. قولتلي اسمها إيه؟

- جيوجستو.

- اه مش مهم اسمها.

ضحك نور وقال:

- والله أنا الحمد لله يا حج عندي بطولة كمان شهر وباتدرب على حركة جديدة اسمها.. arm bar

- جميل جدا.. ربنا معاك يا ابني.. يلا بينا نصلي العشاء بعدها نروح للمطعم.

- يلا يا حاج.

يخرج نور مع والده بسعادة طفل صغير.

صوت أذان المغرب من مسجد اعتاد الوالد الصلاة فيه.. يصلي نور ووالده ركعتين تحية للمسجد.. يسجد الوالد ويناجي ربه وهو قريب منه..

- يا رب ارحم ابني واغفر له وارحمني واغفرلي أنا كمان، يا رب انت أكتر من يعرف إني اتعلمت، اغفر لي كل اللي عملته يا غفور وارحم ابني اللي طلعلك يا رب يا رحيم يا غفور.

❊ ❊ ❊ -

- يا بنت الكلب يا وسخة.

يقولها والد روان لزوجته صارخًا فيها بغضب.. فتقول باكية ومتألمة:

- خلاص بالله عليك يا حاج حرام عليك.

يزداد غضبه فيصفعها مرة أخرى:

- يا مرا يا وسخة أنا باتعب في الشغل وباموّت نفسي في الشغل عشان أروح وتقولي لي مافيش أكل؟ ليه؟ جاموسة البيت أنا؟

تلطم أم روان وجهها:

- مافيش فلوس.. مافيش فلوس.

- يعني إيه مافيش فلوس.. ال ٣٠٠ جنيه اللي في أول الشهر راحو فين يا روح أمك؟

- خلصوا والكعبة الشريفة خلصوا.

أمسك شعرها وشدها:

- وديتهم فين يا فاجرة؟

صرخت من الألم ولم تسطع الكلام.. ويجلس محمد عاقدًا قدميه يتابع ما يحدث بدون انفعالات كأنما يشاهده على التلفاز وليس أمامه.. والأفكار والجمل تتزاحم في رأسه الصغير.. رغم شكله وتصرفاته الهادئة فعقله في حالة صراع فكري دائم.. قال لنفسه:

- هذا لن ينتهي مهما حاولت ومهما دعوت.. كل ما عليّ فعله أن لا أفكر.. ولكنني أفكر الآن، أفكر فيّ أم لا أفكر أليس هذا تفكيرا؟ لا ليس هذا ما قصدته.. أقصد أن لا أفكر في كل شيء بزيادة كي لا أتعب وأقول أفكارًا شاطحة.. ولكن هذا أيضًا مستحيل بالنسبة لشخص مثلي.. الهروب كأختي أو الانتحار كشهاب.. حلول سيئة جدا.. ربما يجب عليّ التعايش مع تلك العائلة المجنونة حتى أكبر وأستطيع العمل والاستقلال بذاتي وأكوّن عائلة.. وعندما أكوّن عائلة لن أعاملهم مثل ما أعامل من عائلتي، سأجعلهم يحبون الحياة بكل ما فيها وبكل حرية ولن أفرض عليهم أي شيء أو أي فكرة.

ترك والده ووالدته أخيرًا وهي متقلصة في ركن من أركان المنزل تبكي وتنتحب وينظر إليها محمد بغير مبالاة يعد السنين التي تفصله عن الاستقلال.

❊ ❊ ❊

في مقبرة ما تقف فتاة شقراء ترتدي تيشرت أسود وشعرها الطويل متدلٍ حتى منتصف ظهرها.. تقف أمام مقبرة ما.. ويأتي رجل سمين ضخم كرشه مهيب يعطيه منظر الهوات والبشوات ويتردي تيشرت أسود بولو أصلع تقريبا ويضع نظارة طبية.. يرى الفتاة الشقراء فيبتسم.. يقف بجانبها وتنظر إليه لحظة بعدها تعيد النظر إلى القبر.. يقول الرجل:

- كنت عارف إنك هتكوني هنا يا روان.

- وأنا عارفة إنك بتدور عليا يا دكتور هيثم.

- مش بادور عليكي بلاحقك يعني، أنا بس نفسي أقابل اللي وقعت شهاب من رجليه.. وعلى فكرة الواد عينه بتقدر الجمال.

ضحكت روان ضحكة قصيرة مجاملة.. يسألها سؤالاً شغل باله كثيرًا:

- بتحبيه؟

فردت على الفور:

- لا.. عمري ما حبيته بالشكل اللي حبني بيه لا زمان ولا دلوقتي.. أنا باحترمه وباحبه كصديق.
- سؤال تاني واعذريني لو كنت فضولي حبتين.. إزاي عايشة بعد ما هربتي؟

تأخذ نفسًا طويلا ثم تجيب:

- باشتغل في صيدلية دوام كامل باوفر لنفسي هدوم وأكل وشرب وبعرف أحسن من المكان اللي عايشة فيه، وأنا عايشة مع صاحبتي في أوضة لعائلتها فوق سطح البيت اللي هي ساكنة فيه وباحوش عشان في أقرب وقت أقدر اشتري شقة.. سبت التعليم وعوضًا عنه باقرا كتاب كل أسبوع.

يهز الدكتور رأسه وينظر لها لأول مرة ولسان حاله يقول تلك الفتاة قاست كثيرًا.. تثني روان ظهرها وتضع كفها على التراب وتقول بحزن:

- تفتكر حاسس بينا؟

لا يريد أن يفتي في الدين فيقول الحقيقة:

- ماعرفش.

تضع يدها الأخرى وتضغط على التربة وتقع إحدى دمعاتها على التربة وتسأل:

- تفتكر بيتعذب؟

يرد بتلقائية:

- ماعرفش.

تقول بصوت خافت تتعمد أن يسمعه الدكتور:

- أومال انت تعرف إيه مش فاهمة؟

يضحك الدكتور ويجلس القرفصاء بجانبها ويضع يده على رأسها:

- أعرف إن ربك كبير.

تمت

شكر خاص

إلى

أبي وأمي،

أحمد محمد نجيب ،

أحمد المغربي،

حسين متولي،

يارا مجدي،

ندى إدريس،

وأخيراً ...

روان أحمد.

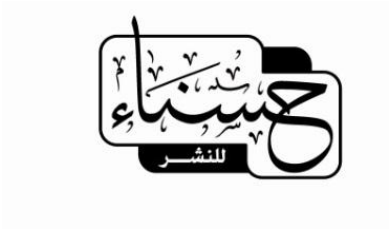

الإسكندرية ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١ (+٢)

٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧ (+٢)

حسناء للنشر والتوزيع